14 me Année No. 677

Lundi—24—6—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
ص
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العدد ٦٧٧ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢٤ رجب سنة ١٣٦٥ — ٢٤ يونية سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

أصول الكلمات

للاستاذ عباس محمود العقاد

قرأت فى « الثقافة » الغراء مقالا للكاتب الفاضل الأستاذ محمد فريد أبى حديد بعنوان « القواص الذهبى » قال فيه :

« وكانت وظيفة القواص بسيطة جدا تتلخص فى أن يقف ذلك الموظف على باب سيده الباشا الكبير ، أو الحاكم الجليل لابسا ملابسه الزاهية الموشاة بالقصب الذهبى اللامع . ويحرص على أن يربى شواربه حتى تصير مثل الحبال الطويلة ، ثم يبرمها برما شديدا ويشدها بالأدهان حتى تصير مجدولة ترفع طرفيها كالحراب ، فيصبح منظره بهذا مهيبا يقع فى النفوس موقع الرهبة ؛ وصارت هذه الشوارب موضع تفاخر القواصين » .

وقد التزم الأستاذ أبو حديد كتابة الكلمة فى الافراد والجمع بالصاد كما رأيت ، ولعله لاحظ فى ذلك لهجتها التى كانت تلفظ بها وحروفها التى كانت تكتب بها فى عهد الدواوين التركية ، لأن وظيفة « القواص » كما وصفها الأستاذ هى الوظيفة التى عرفت بين المصريين وغيرهم من الأمم التى شملتها دولة الخلافة العثمانية فى أواخر أيامها . فلم يكن « للقواص » عمل غير الوقوف على الأبواب ولم تزل الكلمة تقترن بأصحاب هذا العمل من الترك والأرنؤود والشراكسة حتى حسبت من كلمات اللغة التركية ، وكتبها بعضهم فى أوربة كما كان ينطقها الترك كڤاش Kavasse .

ولكن الكلمة على التحقيق عربية من بقايا الدولة العباسية ، لأن القواسين كانوا طائفة من طوائف الجند يحملون الأقواس كما كان السيافون يحملون الأسياف ، والنبالون يحملون النبال ، والرماحون يحملون الرماح . ولم يكن عمل القواس فى أول عهده مقصورا على الوقوف بالأبواب والإذن لطلاب المثول بين أيدى الأمراء والرؤساء ، ولكنه كان يتقدم الأمير فى موكبه أو يخرج بين يديه كلما خرج للصيد أو فى محافل العرض العسكرى ليحمل له القوس التى يصيد بها أو يستخدمها فى الرماية ؛ لأن الأمير كان يتقلد سيفه ولا يعهد فى حمله إلى غيره كما يفعل بالأقواس والرماح .

وكان قادة الجند فى أواخر عهد الدولة العباسية من الترك والديلم فاحتفظوا بمراسم الامارة حتى قامت الدولة العثمانية ونقلت عن خلفاء المسلمين وأمرائهم من قبلها بعض مراسم الامارة والحجابة ، ومنها مشية القواس بين يدى الأمير ووقفته على بابه وقيامه قواسا بغير قوس بعد أن أغنى عنه حامل البندقية والطبنجة ، بل بعد أن أصبح القواس نفسه يحمل الطبنجة فى حزامه ، ولا يعرف ما القوس وما الرماية بالسهام .

وهكذا تعيش الكلمات أحيانا ، وتفنى الدول والامارات وما اقترن بها من المعالم والأشياء .

على أن الرجوع بالكلمات إلى أصولها يمضى بنا بعيدا فى مجاهل النقل والاستعارة . فإننا نذكر القواس والرماح والسياف ونعلم أن السياف حامل السيف ، وأن السيف كلمة عربية قديمة

من ساف ماله أى هلك كما قال ابن دريد . ولكن بعض الأدباء ينكرون على ابن دريد هذا الاعتساف فى رد الكلمة إلى ساف يسيف ويقولون إنها يونانية الأصل من سيفوس « Xifos » التى حذف منها العرب آخرها كما يفعلون بكثير من أواخر الكلمات وأن العرب أخذوا كلمة الحربة من العبرانيين ، وهى عندهم من حرب بمعنى الحرب أو الخراب .

قلت : لا ضير على العرب أن تنقص من لغتهم كلمة بمعنى السيف فقد تغنيهم عنها مئات الكلمات ، ولا ضير أن يفقدوا « حربة » واحدة فعندهم الصحراء بل الصحارى التى لا يقدر عليها أحد غير أبناء يعرب وقحطان .

إلا أن الكلمة التى لا يفرط فيها العرب ولو كان لهم فى أصل معناها ألوف الكلمات هى كلمة « العقل » التى ظن الأب أنستاس الكرملى أنها متحولة من اللاتينية فقال فى مجلته لغة العرب : « ... ذكر صاحب تاج العروس سبب تسمية العقل بهذا الاسم وسر اشتقاقه أو أصل اشتقاقه من مادة عقل فقال ما هذا حرفه : واشتقاقه من العقل وهو المنع لمنعه صاحبه عما لا يليق ، أو من المعقل وهو الملجأ لالتجاء صاحبه إليه ، كذا فى التحرير لابن الهمام . وقال بعض أهل الاشتقاق : العقل أصل معناه المنع ومنه العقال للبعير سمى به لأنه يمنع عما لا يليق . قال :

قد عقلنا والعقل أى وثاق وصبرنا والصبر مر المذاق

وقد راجعنا كتبا كثيرة فى هذا المعنى فرأينا أصحابها لا يخرجون عن القول بأحد هذه الآراء . ونحن لا نرى هذا الرأى ، والذى عندنا أن أصل معنى العقل هو العين لأنه عين النفس وباصرتها . ثم مات المعنى المادى وبقى المعنى المجازى ، يشهد على ذلك أن اللاتين يسمون العيون والعقل باسم واحد ، وهو عقل Oculi ... » .

كذلك قال الأب أنستاس . وقد عقب عليه الأستاذ روكس ابن زائد العزيزى معلم العربية بكلية تراسانته بالقدس فى مجلة الأديب البيروتية فقال : « فلو قلنا إن العرب قالوا : عين القلب . ثم نحتوا من الكلمتين كلمة واحدة — عقل — لما أبعدنا عن الصواب . ولو سايرنا ما ذهبتم إليه وقلنا إن العقل من عق لكان مقبولا ، لأن العقة هى البرقة المستطيلة فى السماء ، وهل العقل إلا وميض النفس وعين القلب ؟ » .

ثم راح يقول : « ويقال عق بالسهم إذا رمى به نحو السماء وذلك السهم العقيقة ... قال الجوهرى :

عقوا بسهم ثم قالوا صالحوا ياليتنى فى القوم إذ مسحوا اللحى

وذلك السهم يسمى العقيقة وهو سهم الاعتذار ، وكانوا يفعلونه فى الجاهلية ، فإن رجع السهم ملطخا بالدم لم يرضوا إلا بالقود ؛ وإن رجع نقيا مسحوا لحاهم وصالحوا على الدية » .

قلنا : والعقل براء من كل هذه الفروض والتخمينات فى حرفه ومعناه ؛ إذ ينبغى قبل أن نفرض النقل من اللاتينية أن نفرض استخدام الكلمة فى لغتها الأصلية بهذا المعنى ، ونفرض خلو اللغة العربية مما يقابلها ، ونفرض الوسيلة التى تم بها النقل من طريق السماع أو الكتابة ، ونستبعد — عقلا — أن ينشأ معنى العقل من معنى العقال ، وهو غير بعيد ... بل هو أقرب شىء إلى ذهن العربى الذى يوازن أبدا بين حالتى الانطلاق وحالة الاعتقال ، ويتحدث عن كبح الشهوات وكظم الغيظ ، ويستعير الحجر فى مادة أخرى من الحجر وهو المنع والتقييد . وصدق المتنبى حيث قال :

وبعض العقل عقال

والحجر كما لا يخفى هو العقل ، والحجر كذلك هو المنع ، كما فى عقل وعقل بلا اختلاف .

فلماذا نرجع إلى العقل المنحوت من عين القلب أو نرجع إلى العقل المأخوذ من الكلمة اللاتينية وهى لم تطلق على هذا المعنى قط فى أصلها الأصيل ؟ ولماذا نأبى أن يكون الرجل العاقل هو الرجل الذى يملك زمام نفسه ، فلا يندفع مع الأهواء والشهوات ؟ وأى شىء أقرب شبها للعقل الزاجر عن الأهواء والشهوات من عقال البعير ، ولجام الفرس ، وكل كابح عن كل اندفاع ؟

عرضنا لهذا التخريج فى بعض المجالس فقال أديب : إذن هذا الكرسى مأخوذ من شير Chair الانجليزية .

وقال آخر : لا بل هو مأخوذ من كر ومن رسا ، لأن الإنسان يرسى على الكرسى بعد الكر والتعب .

وقال آخر : بل هو مأخوذ من جلس ، ثم صحفت الجيم كافا واللام راء ، وهو قريب فى مذهب التصحيف .

مقالات في كلمات

[إلى الأستاذ سيد قطب]

للأستاذ علي الطنطاوي

ذكرتني غضبتك للشعر والبيان في « الرسالة » ٦٧٤ بأن في مكتبتي دواوين (شعرية ...) هي أولى إذا اطلعت عليها أن تكتب عنها ، ففتشت عنها حتى وجدتها فاذا هي ثلاثة دواوين متشابهات في الحجم والقطع ، وفي الوضع والطبع ، كأنها قد صدرت عن ناشر واحد مع أن كلا منها قد ظهر في بلد — وكلا من أصحابها يدين بدين من الأديان الثلاثة .

أولها : ديوان (الصيدح) لخليل جرجس خليل ، طبع في مطبعة جرجس حنين بالمنيا في مصر سنة ١٩٣٩ ، وهو جيد الورق أنيق الطبع في مائة صفحة وقد أهـــداه (الشاعر) لروح الرافعي ! !

والثاني : ديوان (حنين النـديم) لعبد الله نديم موبال بكالوريوس علوم وهو من فلسطين ، طبع في مطبعة صادر في بيروت سنة ١٩٣٦ على ورق صقيل مشكول الشكل الكامل ، وهذا الشكل وحده أعجوبة الأعاجيب ، وهو في مائة صفحة ، وقد أهداه لوالده (المرحوم الدكتور شمعون بك موبال كلي الاحترام) ، وهذا هو نص الاهداء :

لذكرى والدي أهدي شماراً   لصدق الوحي في رفق الشعور
إليك الاحترامُ المُجْـزِ وداً   حليف اللانهايات البحـور
وليّ الفـكر والبدا وحسّ   لطيف خالد إهـدا السطور

والثالث : ديوان (القلوب المتقطمة) لحسن محمود الحلبي ، طبع في مطبعة الاستقلال العربي في دمشق ١٩٣٨ وهو في مائة صفحة (أيضاً) وفي أوله صورة الشاعر في وضع سينمائي ...

رمتني الليالي في القبور ذليلا   وسار شبابي في الحياة ذبولا
خلقت من الأحزان شخصاً مهدداً
وبين جموع النـاس دمت هزيلا
فليت أقول الشعر دون تلوّع   يسود فيبدو الشعر حزناطويلا
ولكن أرى في مقاتي دمع ناحب   يسيل فيمطي الشعر لونا جميلا

وإذا نزلت يا سيدي بهذا الأسلوب دركة أخرى ، وجعلت الموضوع كله في وصف بنات (المحل العمومي) وما يكون منهن وصفاً سافراً مفصلاً ، جاء معك ديوان (قالت لي السمراء) لـ (نزار قباني) الذي صدر في دمشق منذ سنتين ، وإذا زدت لغة هـذا الديوان لعنة على لعنتها ، وأسلوبه عمى على عماه ، وموضوعه فجوراً على فجوره ، جاء معك كتاب (في قصور دمشق) الذي أصدره في دمشق من نحو عشر سنين ، موظف صغير في دائرة الصحة عامي يدعى (محمد النجار) .

هذا كله عندنا فماذا نقول نحن يا أستاذ ؟ !

النثر والشعر في المدارس :

كنت كلما درّست الأدب العربي أعجب لما أجد من انصراف الطلاب عن نثره إلى شعره ، على حين أنهم أميل إلى النثر في الأدب الفرنسي منهم إلى الشعر ، ففكرت فرأيت أن السبب في ذلك المناهج .

والذي تقرر المناهج تدريسه من النثر العربي في مصر والشام والعراق لا يخرج في جملته عن رسائل ميتة لا روح فيها ، أو فقرات جامدة مسجّعة أو غير مسجّعة ليس فيها وصف يهز القلب ، أو معنى يوقظ الفكر ، حتى إن مايختار لمثل الجاحظ

وقال غيرهم : بل هو مأخوذ من الكراسة ، لأن الإنسان يجلس إذا أراد الكتابة فيها .

وطال التصحيف والجناس على هذا القيـاس فلم يبلغ أحد منهم في هزله مبلغ الجادين في رد العقل إلى عين القلب أو إلى كلمة قديمة في لغة اللاتين .

فحذار حذار من مراجعة الأصول بغير أصول ، وخير لنا أن نقنع بالفروع إذا كان الرجوع إلى الأصـل ينقطع بنا في هذه المتاهة بغير دليل .

ونحن في أمان حين نقنع الآن بالرجوع من الصاد إلى السين في اسم القواس . فلم يبق لهذه الوظيفة ما يخاف في اسم ولا في مسمى بحمد الله .

عباس محمود العقاد

وهو في رأيي أحد الخمسة الذين انتهت إليهم إمامة النثر العربي (الجاحظ وأبي حيان التوحيدي والغزالي وابن خلدون ومحي الدين بن عربي) هو من الملّ المضجر كوصف الكتاب وصفاً هو مجموعة جمل مستقلة تشبه حِكَم أكْثم بن صيفي ليس بينها ارتباط، ولا يفسدها التقديم فيها ولا التأخير، ويصعب استظهارها وحفظها، مع أن للجاحظ المعجب المطرب، والبهج الرقص من القصص والأوصاف، فكان من ذلك أن رغب الطلاب عن أدبنا وكرهوه، وآثروا عليه الأدب الفرنسي، لأنهم وجدوه أقرب إلى قلوبهم، وأدنى إلى أفكارهم.

ودواء هذا الداء أن يخرج واضعو المناهج من هذه الزاوية التي حبسوا أنفسهم والطلاب فيها، إلى فضاء الأدب ورحبه، ويدعوا الصاحب والقاضي الفاضل، وهذه الرسائل الباردة، وهذا الأدب الميت الذي لا روح فيه ولا جمال، ولا يصح أن يكون مثالا يحتذى، ودليلا يتبع، ولا يجوز أن يعرض على الطالب إلا على أنه لون من ألوان الكتابة، فيدرسه دراسة المؤرخ له، لا دراسة المتأدب به، ويفتشوا بين العلماء والصوفية والمؤرخين عن ذوي الملكات البيانية، فيجدوا فيهم من لا يعد معه أدب الصاحب وعبد الرحيم البيساني إلا لعب أطفال.

أذكر على سبيل المثال (ابن الجوزي) في كتابه صيد الخاطر وموضوعه ظاهر من اسمه، وهو خواطر كانت له فيدونها في هذا الكتاب، وليس في هذا الكتاب بلاغة الجاحظ وابن قتيبة، ولا صناعة ابن العميد، ولا فحولة الجرجاني، ولكن فيه شيئاً ليس مثله عند أولئك جميعاً، هو هذه السهولة وهذه السلاسة، وهذا الصدق في تصوير الخواطر، وهذا الإلمام بالمسائل النفسية والاجتماعية والدينية، وما فيه من وثبات ذهنية عجيبة، وما يقوم به من تحبيب الأدب إلى الطلاب، وهذا الكتاب لو نشر اليوم على أنه لبعض الكتاب العصريين، لقامت له الصحف الأدبية وقعدت، وهللت له وكبرت، وأحلته الذروة والسنام.

وأذكر (ابن السماك) هذا الرجل الذي تدل الفقرات القليلة التي رويت له على أنه أحد أفراد الدنيا في بلاغة القول، وصفاء الأسلوب، وعلو التفكير، ولم يفكر مع ذلك أحد في استقراء أخباره، وتتبع آثاره، و (ابن حزم) في (طوق الحمامة) و (ابن القيم) في (روضة المحبين) وابن داود الظاهري، والبطري والغزالي، وابن عربي، وأبي حيان، والشافعي، وأمم لو أحب واضعو المناهج العناية بآدابهم، لوجدوا شيئاً ينسيهم وينسي الطلاب الصاحب بن عباد وأضرابه.

الكتب المدرسية والكتب الأدبية:

زرت من سنين أحد (الناشرين) في دمشق، وكان عنده صديق الأستاذ التنوخي، ومعه كتاب (المثنى) لأبي الطيب اللغوي الإمام العلم قريع ابن خالويه، وزميله في بلاط سيف الدولة. وقد وقع على النسخة الوحيدة منه التي ليس لها في الأرض ثانية، بدليل أنها ليست في خزانة من الخزائن العامة في الشرق ولا في الغرب، وأنه أعلن في مجلة المجمع العلمي العربي السؤال عنها فلم يكن عند أحد علم بها. والنسخة صحيحة مقابلة بالأصل (أي بنسخة المؤلف) عليها تعليقات بخطوط كبار العلماء كابن الشحنة وغيره، فاشتغل بنسخها وتصحيحها ومعارضتها بكتب اللغة أمداً طويلا ... فرأيته يعرض عليه طبعها بشرط واحد: هو أنه لا يشترط شرطاً ... ولا يريد مالا ولا يبتغي على تعبه أجراً. وعند الناشر (معلم) يعرض عليه كتاباً في القراءة والمطالعة كل عمله فيه أنه نسخ من كتب الأدب قصصاً وأحاديث كتبها في أوراق ثم جمعها فخاطها فجملها بإذن الله كتاب مطالعة للصفوف الثانوية، وهذا المؤلف يأبى إلا أن يكون أربعون في المائة من النسخ المطبوعة ثمن (تعبه ...)!

وقد مرّت الآن سنوات على هذه المقابلة طبع فيها هذا الناشر مائة كتاب مدرسي، وكتاب المثنى لا يزال مخطوطاً في دار أبي قيس.

أدباء المجالس:

من الأدباء من كنت أقرأ له فلا أبتغي بلاغة ولا لَسَناً ولا بياناً إلا وجدت عنده فوق ما أبتغي، فأتخيل شخصه، وأتوهمه على أوفى ما يكون عليه التفوّه اللسن، ثم ألقاه فألاقي الرجل الساكت الصموت، الذي لا يكاد يتكلم حتى تكون أنت الذي يسأله ويدفعه إلى الكلام، وإذا تكلم أخفى صوته، ولطّف

حروفه ، حتى لا يسمع منه ولا يفهم عنه … ومن الأدباء من ألقاه في مجلس فأجد المحاضر الفياض الذي ينتقل من نكتة إلى نكتة ، ومن قصة إلى أبيات من الشعر ، فيبتدع لها المناسبات ، ويلقيها بصوت قويّ ، ويتكئ على الحروف ، ويعظّم مخارجها ، فأكبره وأعظمه وأسأله أن يكتب مقالة ، أو ينشئ فصلا ، فيفرّ منه فراراً ، ويسوف ويعتذر … فاذا أحرج وكتب جاء بشيء هو أشبه (بسفرة السحّر) فيها من كل طعام لقمة ، ولكن الحلوم الحامض ، والحارمع البارد ، وكل طعام مع طعام .

وقد تتبعت أحوال هؤلاء ، فوجدت أكثرهم على غير علم ولا اختصاص ، ولا يطالع بجدّ ، ولا يبحث بإمعان ، ولا تدع له (المجالس) وقتاً لدرس ولا بحث ، وإنما يحفظ الرجل منهم طائفة من الأخبار الأدبية والنوادر فيحملها معه أياما يعرضها في كل مجلس ، وبعيدها بعينها ، حتى ترثّ وتبلى وتصبح كالثوب الخَلَق ، فيعمد إلى غيرها فيصنع به مثلما صنع بها ، ولا يدرك الناس الفرق بينه وبين الأديب المبدع الباحث ، فيطلقون على الاثنين اسم الأديب … فمتى يميّز الناس بين الأديب الحق ، وبين (أديب المجالس) ؟

مجمع الشريعة الإسلامية :

أخبروني أن عالما في دمشق يفتي الناس بأن الورق السوري (البنكنوت) لا تجب فيه الزكاة لأنه ليس بذهب ولا فضة ، ويقول بأن هذا هو الحكم في المذهب الشافعي مع أن النقد في سورية كله من هذا الورق ، وأن الفضة فقدت خلال الحرب ، وأن التعامل بالذهب ممنوع ، فتكون فتوى هذا العالم الفقيه … إنما هي فتوى بمنع الزكاة ، وهذه الفتوى على فسادها وضلالها وأنه لا يقول بها مذهب شافعي ولا مالكي ولا يقول بها مسلم عاقل ، وأن هذا الشيخ الفاضل الذي ينكر أن يكون الورق السوري مالاً يقبض في آخر الشهر راتبه ورقاً سورياً ، ويشتري به خبزه وجبّته ، ويقاتل إن منع عنه … إنها على هذا كله قد وجدت من يأخذ بها ليتخلص من الزكاة ومن يردّ عليها

وخبروني أن عالمًا آخر أفتى بسقوط فريضة الحج في هذه الأيام … ونسب الفتوى إلى مذهب الشافعية ، ورحم الله الشافعي كم ينسب إليه .

وخبروني بأن المناقشات قائمة بشأن الربا ، وهل تعد المعاملات الصرفية منه أو لا تعدّ ؟ ! وبشأن رؤية الهلال وكيف يثبت دخول الشهر ، وبشأن التوسل ، وكرامات الأولياء ، وبشأن الطلاق … إلى غير ذلك من المشاكل الفقهية التي تحتاج إلى مرجع يرجع إليه فيها .

وكنت قد سمعت من الأستاذ القاضي العالم الشيخ فرج السنهوري لما زرت مصر أن الملك فؤاداً رحمه الله ، كان عازماً على إنشاء مجمع للشريعة على نحو مجمع اللغة العربية ، يكون من عمله ردّ الشبهات ، وحل المشكلات ، والافتاء ، ووضع مشروعات القوانين ، فلماذا لا يلتمس علماء مصر من جلالة الفاروق حفظه الله أن يأمر بإنشائه فيضم هذه المنقبة إلى مناقبه الكثيرة ، فيرضي بذلك ربه ، ويحقق رغبة أبيه ، ويجدد للمسلمين دينهم ، ويسنّ سنة في الاصلاح يكون له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، وينقذنا من هذه المناقشات ، وهذه المجادلات ، وهذه الجرأة على الافتاء ؟

(دمشق) **علي الطنطاوي**

ســـعيد ... !

للاستاذ صلاح الدين المنجد

[أيها الأغنياء المجرمون .. إن هذا الفقير السعيد ، لأشرف منكم جميعا .. !]

كان الضباب ينحدر ببطء من حدور الجبال نحو القرية الهاجعة في أحضان الظلام ، وكان الهواء يعصف ويزأر ، يهب من حقول الذرة تارة يحمل الزوابع والتوابع ، ويهبط من الجبال الملأى بالزعرور ، يحمل الجن والعفاريت ، كأنه يريد أن ينقض على هذه القرية فينسفها نسفاً .

وكانت الطرقات قفراً ، لا تلمح على ظهرها أحداً ، فقد دفع الهواء العاصف أهل القرية أن يختبئوا في دورهم تاركين المصاطب التي تحلقوا فوقها ، يستمعون إلى أحاديث الحصاد ، ويتحدثون عما لديهم من الآمال والأشغال .

وساد الظلام في كل مكان ... وعبث الهواء بمصباح القرية المعلق أمام الجامع فأطفأه وألقى به في الأرض ، وانتشر فوق القرية رعب وكآبة ، ونام القرويون ... حتى الحارس (أبو شنب) فقد ترك عصاه الغليظة أمام باب الجامع ، وأغفى وراء الباب .

وفجأة ظهر في طرف القرية ، من إحدى العلالي ، نور ضعيف ثم أخذ يشتد ويقوى حتى نارت العلية ... وظهر رجل يقترب من نافذتها .

ولو أن الحارس كان مستيقظا لأسرع إلى العلية يستطلع أمر هذا النور ، ويسأل صاحبها إطفاءه ، لئلا يستدل العدو على القرية فيهاجمها بجنده ، ويصب عليها نار مدافعه .

ووقف الرجل في النافذة ، فنظر حوله ، ثم أخذ يخطو في العلية خطوات غير متزنة ، ثم عاد إلى النافذة ينظر ... كأنه يترقب أمراً ، أو يستطلع سراً ، ثم انفتل إلى المصباح ، فأضعف نوره ، وعاد إلى النافذة يتمتم بصوت ضعيف كأنه يخشى أن يسمعه أحد :

— لقد سخر مني ، عيرني بالفقر والعجز ، لم يخجل من شيبي وضعفي ... لقد تخطيت الستين ... أكُتب عليّ أن أكون عبداً له ، أتعب ليستريح ، وأجوع ليشبع ، وألبس المِزق ليرفل بالحرير . ها أنذا لا أملك شيئاً ، وأولادي الصغار قضوا ثلاث ليال لا يأكلون ، بل لا يجدون اللقمة الواحدة . أمتهم تملأهم بي ، وأنا مختبئ أمام باب الدار ، أسمع أصواتهم ورن في أذني بكاؤهم ، فيتفطر قلبي ، وينهمل دمعي . إنهم قطع مني فكيف أتركهم يجوعون ... إنهم أولادي ، فكيف أدعهم يبكون ... ليقولوا إني سارق وإني مجنون ... وليسوقوني إلى السجن ، فهم كفرة لا يرحمون ، ولأطعم أولادي . فلعلهم يشبعون . إن الدراهم عندي ، وان أرجعها . ولكن ، ما أدري ! ما الذي يعبث في صدري ، وبين أضلعي ؟ إنه يضنيني ويقلقني ... ما أشد هذه الليلة عليّ ... ! إنها لأثقل من هذه الجبال وأثقل من السماء . ما ذا أفعل يارب ؟ إن عفريتاً يحطم مني . كأن في يده معولا فهو به يضربني . إني لأسمع همسانه في كل دقيقة ، بل في كل طرفة ترنّ في أذنيّ وتطنّ « هات الدراهم ، هات الدراهم » لكن لا ، ليس في العلية أحد ، أجني يكلمني ؟ ماذا أصابني ؟ »

ورفع الشيخ يده إلى جبينه يمسح العرق عنه ، ثم حول بصره إلى الغرفة فنفضها ، عله يجد فيها الذي يقلقه . ولكنه لم يجد أحداً . فخطر على باله أن ينام . لقد حاول النوم من قبل ففر منه النوم . أما الآن ، فلعل النوم يشفق عليه ، وينقذه من هذا العفريت الذي يطن في أذنيه . فاضطجع على كيس من القش اتخذه فراشا . فقرأ وتعوذ ، ودمدم وهمهم ، وسرد ما حفظه عن شيخ القرية يوم الجمعة ، مما يذهب الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس . وتقلب في فراشه ذات اليمين وذات الشمال . وحاول أن ينسى الدراهم ، بل تمنى لو كان أصم ، فلا يسمع هذا الهمس الناعم ، ولكن صورة الدراهم كانت تملأ عينيه ، وهمس العفريت كان يرن في أذنيه .

وجفا فراشه ، وقد تحطم جسمه . وأخذ يطوف حول العلية ، مطرق الرأس ، حانى الظهر . كيف الخلاص مما يسمع ؟ إن هذا الهمس : « هات الدراهم » يكاد يقتله ، وما ذا فعل ؟ ألأنه سرق ؟ وقلبه ماذا أصابه ؟ إنه يكاد يتمزق في صدره . ونادى : « ألا دعني أيها العفريت دعني ... اخرج من صدري ، ابتعد عني . آه لو كنت شاباً ... دعني فأنا شيخ محطم أكاد أموت .

دعني، فما أخذت الدراهم لنفسي، ولا لزوجتي، ولكن لأولادي. انظرهم كيف يبسوا من الهزال، وسقموا من الجوع! أيبقون بلا رغيف ثلاثة أيام وفي صناديق جارى الدنانير؟ أيموت صغارى من الجوع، ولي عند (البيك) — ألا لعنة الله على (البيك) — أجرة ثلاثة شهور؟ لقد طردني، أيها العفريت، ولم ينقدني أجرها. فطفقت أشكو، فلم يصغ أحد إلي. لقد قالوا إني كاذب، لأني فقير ضعيف. وإنه صادق لأنه سيد القرية الغني فدعني. فلم أعد أطيق. اذهب إليه، فهو مجرم كبير. اذهب إليه، وارقب غشه ودسه ... فإني فقير. اخرج أنت يا قلبي معه لأستريح. لقد طلبت بنيتي قرشاً فقلت لها غداً، وسألني بني ثوباً، فقلت له غداً. وبت أخجل أن أراهما. أفلا أسرق يارب، ويا عفريت، ويا قلب، لأطعمهم وأفرحهم، وأدخل على قلوبهم السرور؟ » .

ولكن العفريت، كان أصم. فها هوذا قلبه يخفق ويضرب ضربات كأنها القنابل. مسكين لم يصغ إليه أحد، لا العفريت ولا قلبه ...

وضاق الشيخ بنفسه ذرعاً. أيقتل نفسه؟ لقد فكر في ذلك، ولكنه انصرف عن هذه الفكرة سريعاً، وفضل أن يفر من القرية. ثم رأى أنه لا يطيق فراق أولاده، وقد رُزقهم وهو شيخ قد بلغ الخمسين. وفجأة التمعت عيناه. لقد فكر في الله. لم لا يصلي ركعتين، ويخلص لله النية، ثم يدعوه بدعاء تعلمه؟ لقد سمع هذا الدعاء من شيخ القرية، وحفظه عنه، ورسخ في ذهنه أن هذا الدعاء، وفيه توسل بالأولياء والصالحين، سريع الإجابة، عظيم التأثير. إذن فليدع الله. وسرعان ما قفز الشيخ فشمر عن ساعديه، ليتوضأ، وها هوذا قد توضأ، وتوجه إلى القبلة، يصلي، فلما فرغ من صلاته رفع يديه، والدنيا سكون وأخذ يدعو. وفرغ من دعائه، وانتظر قليلا، ولكن المعول ما يزال يهدم بين ضلوعه، والعفريت ما يزال يهمس في أذنه، والانقباض يغمر نفسه، والكآبة تشع حوله.

وجهد أن ينام مرة ثالثة، وأغفى إغفاءة قصيرة، وما لبث أن هب من فراشه، وقد عزم على أمر.

لقد ارتدى معطفه المزق، ودلف برفق، بخطوات وئيدة نحو الصندوق الخشبي الصغير، لئلا تستيقظ زوجته وأولاده. ودس يده الراجفة في جيبه، فأخرج مفتاحاً صغيراً، ففتح به الصندوق بهدوء.

لبث الشيخ لحظة مشدوهاً، وعيناه عالقتان بالصندوق تلمعان. ثم غاص بيده فيه، فأخذ صرة صغيرة بيد راعشة، وقلب راجف، وانتفض كالهر فهرول نحو الباب، تاركا الحوائج مبعثرة، والصندوق مفتوحاً.

سار الشيخ مثقل الرأس، يحمل همه على كتفيه. يسرع الخطو تارة، ويبطىء أخرى. وكان الهواء الثائر قد هدأ عصفه وخف زئيره، فلا تسمع سوى أنات النسيم الرقيقة يبثها فوق ورق الزعرور ... وكانت السماء موشاة بغيوم متناثرات هنا وهناك. وقد ظهر القمر شاحباً يترنح بين الغيوم، كأنه ثمل أو سكران ... وكانت القرية مغمورة بكآبة نشرها عليها ضوء القمر الشاحب. وكان الشيخ يمشي وهو ساهم يترنح. ولم ينس أن يبتعد عن مخفر الحارس لئلا يقبض عليه. لقد تمثل في خاطره كيف ساقوه إلى الحاكم لأنه سرق دراهم جاره الغني، وكيف أقسم أنه لم يسرق، لئلا يفتضح وقد شاب رأسه. وذكر ما أصابه منذ انفتل راجعاً إلى داره يحمل لأولاده لقيمات. وكان يخيل إليه، وهو يمشي، أن تلك الأنات التي ترسلها النسمات معناها « الدراهم ... » أما تلك الأشجار المنتصبة في الفضاء فهي أشباح، أو أناس يترصدونه ليقبضوا عليه جزاء يمينه الغموس التي حلفها اليوم. وخامره خوف شديد لا عهد له به من قبل. فكان يقشعر بدنه كلما ظهرت أمامه شجرة من وراء المنعرج، أو من يمين الطريق، كأنها الشبح. فإذا ما تبينها تنفس الصعداء وأحس كأن ماء حاراً صب فوقه، فيرفض جسمه عرقاً: ثم يعاود سيره بجد، ويتلفت من حين إلى حين يمنة ويسرة، ينظر أيتبعه أحد، ثم يحدق أمامه ليطمئن إلى طريقه الطويلة. وينظر إلى الأحجار المبعثرة على جنبات الطريق، التي تبدو كأنها جماجم الموتى، تلمع، وهي صلعاء، تحت ضوء القمر.

وخرج الشيخ من القرية وابتعد عنها، وبلغ داراً كبيرة منعزلة قامت على رابية. وطرق سمعه أصوات عربدة تصدر من الدار فتقدم من نافذة الدار. فرأى النور يتدفق منها، فسأل

نفسه ، لم يَنهره الحارس إذا رأى النور فى عليته ، ويسمح للحاكم أن ينير غرفته ؟ ثم حدق فى ثقب من النافذة ، فرأى مائدة حفلت باللحوم والأطعمة والأشربة . ورأى الحاكم ، وقائد الجند يكرعون الشراب كرعاً ، ويلتهمون اللحم التهاماً ، فارتد بصره ، وذرف دمعة ، وصعد حسرة .

وتعالت أصوات المعربدين . لقد حار فى أمره ، إنه هنا قائد الجند الفظ الغليظ ، ذو العصا الضخمة ... ولئن طرق الباب ، فإنه ليخاف عصاه ، وهو يخشى أن ينهره الحاكم ، أو يسلمه للجند . إنه الحاكم ، لا يخيفه أحد ، ولا يحفل بإنسان .

وهجمت على رأسه فكر سود كالخفافيش ، فذهل . ونبه همس ناعم . وخفق قلبه . وهم أن يعود . فارتجف ، واصطكت ركبتاه خوفاً من العفريت الذى يرافقه ، والذى سيلقاه فى غرفته ، والذى سيؤنبه على السرقة ، ويلحف عليه برد الدراهم ، ففضل أن يضربه القائد ألف ضربة ، وأن ينهره الحاكم ألف مرة ، على وخزات العفريت ، ولسعات الضمير .

وتقدم من الباب ، ومد يده المرتجفة ، فدقه دقات ضعيفة ، وقلبه يخفق .

لم يسمع الشيخ جواباً ، فلقد كانت عربدات الساهرين تحول دون سماع دقات الباب ؛ فأعاد طرق الباب مثنى وثلاث ، وفجأة هدأت الأصوات ، وسمع صوت ينادى فيشق سكون الليل :

— مين ؟

فتلعثم الشيخ ... وعاد الصوت يسأل :

— مين ... ؟

فنادى الشيخ :

— أنا ... أنا .

— من أنت ؟ ..

واقترب الصوت ...

— إنها جريمة ، لا بد ... أوف ! فى النهار شغل ، وفى الليل شغل ... وفتح الباب ، وظهر الحاكم ، ومن ورائه القائد .

وأخذ الحاكم يحدق فى الشيخ ، ولقد حسبه خادمه أحمد :

— أحمد ... شو ، فى جناية ... مين مقتول ... مين ...

وقال القائد وهو يتلعثم :

— قبضتم على القاتل ... هو فى السجن طبعا ... مرحى ... أهرب ؟ ... لا ... لا ...

وارتبك الشيخ وقال :

— لا ... أنا الشيخ جاسم :

وحدق فيه الحاكم وقال :

— جاسم ؟

— نعم ، جاسم ، الذى أخذ الدراهم ...

ومسح الحاكم عينيه بكفيه وقال :

— معك دراهم المقتول ؟ كيف أخذتها ... اقبضوا عليه ...

وردد القائد :

— هيا ... اقبضوا عليه ...

واضطرب الشيخ . والتفت حوله ... ولكن لم يتقدم أحد ليقبض عليه ...

وعاد الشيخ يقول :

— أنا الذى أقسمت اليوم يمينا ، إنها يمين كاذبة . أنا الذى سرقت الدراهم ... لقد جئتك بها ، والعفريت يتبعنى ، يضرب فى قلبى . خذها ... يا سيدى ... أفضل أن أجوع ، ولا أتعذب خذها ... لا أريدها !

ورمى الشيخ بالصرة ، وانفتل يهرول ...

وقهقه القائد ، وهو يقول :

— رزق جديد ... هو لا يأخذها ؟ هه ... نحن نأخذها ... هات ، هات ...

***

وابتعد الشيخ عن الدار . فنظر إلى الأرض ، وإلى السماء ، ونظر أمامه وخلفه ، وعن يمينه وعن شماله . إنه لا يسمع الآن شيئا . قلبه لا يخفق كذى قبل ، وكأن جبالا رفعت عن كتفيه وأحس بالنسيم اللطيف يدغدغ رئتيه ... ورأى القمر كألطف ما يكون . لقد تغير كل شىء ، وها هو ذا يبتسم ، رغما منه لقد أحس بالفرح ، فانطلق يسرع فى مشيه وهو يتمتم :

— آه ... لقد استرحت ... الآن أنا سعيد ... !

(دمشق) صلاح الدين المنجد

على هامش النقد :

« دفاع عن البلاغة »

تأليف الأستاذ الزيات

الأستاذ ســـيد قطب

— ٢ —

يبلغ الأستاذ الزيات فصل الخطاب حين يتحدث عن « الذوق » فيقول فى ص ٣٣ :

« ولكل لغة من اللغات المتمدنة عبقرية تستكن فى طرق الأداء ، وتنوّع الصور ، وتلاؤم الألفاظ . وهذه العبقرية لا تدرك إلا بالذوق . والذوق لا يُعلَّم ، وإنما يكتسب بمخالطة الصفوة المختارة من رجال الأدب ، ومطالعة الروائع العالية لعباقرة الفن . واطلاع الكاتب على الأمثلة الرفيعة من البيان الخالد يرهف ذوقه ، ويوسع أفقه ، ويريه كيف تؤدى المعانى الدقيقة ، وتحيا الكلمات الميتة »

ولكى لا يقع اللبس فى ما يعنيه الأستاذ بالكلمات الميتة ، نقتبس فقرات له فى ص ٨٢ توضح هذا المعنى ولها فى ذاتها قيمة فى بيان قضية البلاغة :

« وفى اختيار الكلمة الخاصة بالمعنى إبداع وخَلق ؛ لأن الكلمة ميتة ما دامت فى المعجم ؛ فإذا وصلها الفنان الخالق بأخواتها فى التركيب ، ووضعها فى موضعها الطبيعى من الجملة ، دبت فيها الحياة ، وسرت فيها الحرارة ، وظهر عليها اللون ، وتهيأ لها البروز . والكلمة فى الجملة كالقطعة فى الآلة ، إذا وُضعت فى موضعها على الصورة اللازمة والنظام المطلوب تحركت الآلة وإلا ظلت جامدة. وللكلمات أرواح كما قال (موباسان). وأكثر القراء ، وإن شئت فقل أكثر الكتاب ، لا يطلبون منها غير المعانى . فإذا استطعت أن تجد الكلمة التى لا غنى عنها ، ولا عوض منها ، ثم وضعتها فى الموضع الذى أعد لها ، وهندس عليها ، ونفخت فيها الروح التى تعيد لها الحياة ، وترسل عليها الضوء ، ضمنت الدقة والقوة والصـــدق والطبيعية والوضوح ، وأمنت الترادف والتقريب والاعتساف ووضع الجملة فى موضع الكلمة وذلك فى الجهاد الفنى فوزٌ غير قليل »

وهذا كلام جيد ، فلقد آن الأوان لأن نقدر قيمة الكلمة فى تلوين الصورة الفنية ، فهى أشبه شىء باللون المعين فى الصورة ، وكما تتبين مهارة المصور فى اختيار الألوان وتنسيقها لتحدث التأثير اللازم فى جو الصورة العام ، فكذلك اختيار الكلمات وتنسيقها لتشع ظلالها الخاصة ، وليتألف من هذه الظلال مجتمعة صورة منسقة .

هذا الاختيار والتنسيق لا يتم كله عن طريق الوعى ، فهناك الذوق الخفى ، الذى تَربى شيئاً فشيئاً ، وأساسه موهبة لدنية ، ولكن المرانة هى التى تبرز هذه الموهبة ، وتلوّنها ، وتجعلها فى النهاية عاملا من عوامل الخلق والاختيار .

ولقد غالت المدرسة العقلية فى تقدير قيمة المعانى وإهمال قيمة اللفظ المصور ، اكتفاء باللفظ الدال . والمسألة هى تعريف هذا اللفظ الدالّ فى الفن . فنحن قد نرتضى هـذا الوصف للفظ ؛ ولكن على معنى أوسع مما تريده المدرسة العقلية فى الفن . إن اللفظ لا يكون دالا فى الفن بمجرد أدائه للمعنى اللغوى أو الذهنى فذلك يصلح فى العلم وربما فى الفلسفة . ولكنه لا يكفى فى الفن ، فالصورة — لا المعنى — هى المقصودة فى الفن . واللفظ والعبارة يكونان دالّين فى الفن حين يؤديان المعنى الذهنى ، ويخلعان بجواره ظلالا معينة تتسق مع هذا المعنى ، ويحدثان فى الوقت ذاته إيقاعاً معيناً يتسق مع الظلال والمعانى ... ومن مجموع هذه الخواص تتكون دلالة اللفظ أو العبارة فى النص الفنى ، كما تتكون الصورة الفنية المعبرة عن فكرة فنية .

وفى هذا المجال يتفاضل الأدباء ، وذلك مع عدم إهمال القيم الذاتية لخصائص الشعور ، وطبيعة التفكير . هـذه القيم التى لا تبدو على حقيقتها إلا عند ما يعبر عنها فى صورة جيدة كما أسلفنا الحديث .

***

« لكل لغة عبقرية تستكن فى طرق الأداء ، وتنوع الصور ، وتلاؤم الألفاظ »

ويرى الأستاذ الزيات أن عبقرية اللغة العربية من حيث طريقة الأداء تستكن فى الإيجاز . وعبقريتها من حيث تلاؤم الألفاظ تستكن فى السجع والازدواج .

وهذه ملاحظة صادقة فى تسجيل خصائص المأثور من البيان

العربي . ولكن الدعوة إلى الوقوف عندها فى أساليبنا المصرية هى التى نفترق فيها عن الأستاذ .

فلننظر فيما يقول فى هذين الأصلين الكبيرين .

« إذا كانت الوجازة أصلا فى بلاغات اللغات ، فإنها فى بلاغة العربية أصل وروح وطبع . وأول الفروق بين اللغات السامية واللغات الآرية أن الأولى إجمالية ، والأخرى تفصيلية . يظهر ذلك فى مثل قولك « قُتِلَ الإنسان ! » فإن الفعل فى هذه الجملة يدل بصيغته الملفوظة وقرينته الملحوظة على المنى والزمن والدعاء والتعجب وحذف الفاعل . وهى معان لا تستطيع أن تعبر عنها فى لغة أوربية إلا بأربع كلمات أو خمس . وطبيعة اللغات الإجمالية الاعتماد على التركيز والاقتصار على الجوهر ، والتعبير بالكلمة الجامعة ، والاكتفاء باللمحة الدالة . كما أن طبيعة اللغات التفصيلية العناية بالدقائق ، والإحاطة بالفروع ، والاهتمام بالملابسات ، والاستطراد إلى المناسبات ، والميل إلى الشرح . ولم تعرف العربية التفصيل والتطويل والمط إلا بعد اتصالها بالآرية فى العراق والأندلس . ولا أقصد من وراء ذلك إلى تفضيل لغة على لغة ، أو ترجيح أسلوب على أسلوب ؛ فإن الاختلاف اختلاف جنسية وعقلية ومزاج . والتفصيل إذا سلم من اللغو كان كالإجمال إذا برىء من الإخلال . وكلاهما حسن فى موقعه ، بليغ فى بابه . وقد يكون التفصيل من الإيجاز إذا قدر لفظه على معناه » .

وإلى هنا فالكلام جيد دقيق ، لأنه يكتفى بتقرير حالة واقعة فى اعتدال وقصد . وإن كان فى هذا التعميم ما يستحق بعض الاستدراك . فالميل إلى الإجمال أو التفصيل قد لا يكون مزاج أمة ولا لغة ، بل مزاج فرد أو جماعة فى كل لغة . ولكن هذا الكلام مقبول فى حدود السمات العامة للغات .

ثم يقول :

« اختصر فى صفة واحدة صفات البلاغة فى أساليب القرآن والحديث وأشعار الجاهليين وخطب الأمويين وكتب العباسيين فلن تكون هذه الصفة غير الإيجاز »

« وكان أمراء النثر العربي من أمثال جعفر بن يحيى ، وسهل ابن هرون يتوخون جانب القصد ، ويؤثرون طريق الإيجاز . حتى قال جعفر للكتاب : « إن استطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا » . والتوقيعات ما يعلقه الخليفة أو الوزير أو الرئيس على ما يقدم إليه من الكتب فى شكوى حال أو طلب نوال . وهى تجرى مجرى الأمثال فى الجمع بين الإيجاز والجمال والقوة »

وهذا كلام جيد حين يراد به تسجيل حالة واقعة — ما عدا الكلام عن إيجاز القرآن فلنا فيه رأى آخر سنبديه - أما حين يراد اتخاذه مثالا فلا

ان طبيعة الموضوعات التى عالجها النثر العربي المأثور ، وأهمها الحكم والأمثال ، والتوقيعات ، والرسائل ، هى التى اقتضت هذا الإيجاز ، وكان سائغا فيها . ولكنه فى الشعر بدا عيبا فى كثير من الأحيان . فمعظم الشعر العربي يعمد إلى بلورة المعنى وإرساله كالقذيفة ، وقلما يعنى بتصوير الحالات النفسية ووصفها وبسط التجارب الشعورية التى تمتع الحس بتتبعها . إنه يخاطب الذهن غالبا بالمعنى الذهنى الأخير الذى لا يتمتع به إلا الذهن وحده . وفى هذا تتفوق طريقة الأداء فى غير الشعر العربي : فى الشعر الأوربى والهندى والفارسى . ولقد كتبت عدة فصول عن « طريقة الأداء فى الشعر » وعن « الصور والظلال فى الشعر » وكلها تبرز تقصير طريقة الأداء فى الشعر العربي عن نظائرها فى الشعر العالمى . والعيب كله راجع إلى بلورة المعانى ، واقتضاب التفصيلات ، أى إلى هذا الايجاز الذى قد يفلح فى شعر الحكم ولكنه يخفق فى تصوير الحالات النفسية ، والخطرات الشعورية كل الإخفاق . كما يخفق فى القصة التى تقتضى مزيداً من « العناية بالدقائق ، والإحاطة بالفروع ، والاهتمام بالملابسات » تلك الخصائص التى ذكر الأستاذ الزيات أنها من خصائص اللغات التفصيلية ...

وقد نقل الأستاذ كلاما لابن الأثير فى ص ٩٤ ، له دلالته فى موضوعنا : قال ابن الأثير .

« جلس إلىّ فى بعض الأيام جماعة من الإخوان ، وأخذوا فى مفاوضة الأحاديث ، وانساق ذلك إلى ذكر غرائب الوقائع التى تقع فى العالم ، فذكر كل من الجماعة شيئا . فقال شخص منهم : « إنى كنت بالجزيرة العمرية ، فى زمن الملك فلان ، وكنت إذ ذاك صبيا صغيراً ، فاجتمعت أنا ونفر من الصبيان فى الحارة الفلانية ، وصعدنا إلى سطح طاحون لبنى فلان ، وأخذنا نلعب على السطح ، فوقع صبى منا إلى أرض الطاحون ، فوطئه بغل من بغال الطاحون ، فخفنا أن يكون آذاه ؛ فأسرعنا النزول إليه ، فوجدناه قد وطئه البغل فختنه ختانة صحيحة حسنة ، لا يستطيع الصانع الحاذق أن يعمل خيراً منها » .

فقال له شخص من الحاضرين : والله إن هذا عىّ فاحش ،

وتطويل كثير لا حاجة إليه . فإنك بصدد أن تذكر أنك كنت صبيا تلعب مع الصبيان على سطح طاحون ، فوقع صبي منكم إلى أرضها ، فوطئه بغل من بغالها فختنه ولم يؤذه . ولا فرق بين أن تكون هذه الواقعة في بلد نعرفه أو في بلد لا نعرفه . ولو كانت بأقصى المغرب ، لم يكن ذلك قدحاً في غرابتها . وأما أن تذكر أنها كانت بالجزيرة العمرية في الحارة الفلانية في طاحون بني فلان فإن مثال هذا كله تطويل لا حاجة إليه والمعنى المقصود يفهم بدونه »

وتعليق ابن الأثير على لسان « شخص من الحاضرين » هو نموذج من فهم العقلية العربية التقليدية للفن . فالمعنى هو المقصود ، المعنى في أوجز لفظ وأخصره ، مجرداً عن ظلاله وملابساته وظروفه . المعنى المركز في « برشامة » !

ونحن لا نتردد في إيثار طريقة صاحب الطاحونة ! — من الناحية القصصية — لأنه يصور الجو والملابسات ، ويطيل التشويق ، ويتضمن المفاجأة في النهاية وهو على تفاهة حكايته « صاحب فن » في روايتها ، يهيء له أن يصبح قصاصا ! ! أما صاحبه الآخر الذي رد عليه فرجل عجول ، وهو قد يكون أشد عروبة ، ولكنه ليس أحسن فنا !

أما القرآن فلم يتبع خطة واحدة . لقد استخدم الإيجاز والإطناب كلا في موضعه ، وحسب الغرض النفسي الذي يتوخاه

وقد جاء في فصل « التناسق الفني في القرآن » من كتاب « التصوير الفني في القرآن » ما يأتي :

« بعض المشاهد يمر سريعا خاطفا ، يكاد يخطف البصر من سرعته ، ويكاد الخيال نفسه لا يلاحقه . وبعض المشاهد يطول ويطول حتى ليخيل للمرء في بعض الأحيان أنه لن يزول . وبعض هذه المشاهد الطويلة حافل بالحركة ، وبعضها شاخص لا يريم . وكل أولئك يتم تحقيقا لغرض خاص في المشهد ، يتسق مع الغرض العام للقرآن ويتم به التناسق في الإخراج أبدع التمام »

ثم ضربت أمثلة متعددة للقصر الخاطف ، وأمثلة متعددة للطول المقصود في عرض المواقف . ويحسن أن أختار هنا مثالين من تلك الأمثلة الكثيرة:

« ١ — يريد أن يصور للناس قصر هذه الحياة الدنيا التي تلهيهم عن الآخرة ، فيخرج القصر في هذه الصورة :

« واضرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحياةِ الدُّنيا ، كماءٍ أنزلناهُ منَ السماء . فاختلطَ بهِ نباتُ الأرْضِ ، فأصبحَ هشيماً تَذْرُوهُ الرياحُ » .

« ويتهي شريط الحياة كله في هذه الجمل القصار ، وفي هذه المشاهد الثلاثة المتتابعة : « ماء أنزلناه من السماء » ف « اختلط به نبات الأرض » ف « أصبح هشيما تذروه الرياح » .

« ألا ما أقصرها حياة !

« ٢ — ويريد أن يبصر الناس بنعمة من نعم الله عليهم ، فيعرض عليهم هذه الصورة نفسها : صورة نزول الماء من السماء وإنبات الزرع به ، وصيرورته حطاما ... ولكن في تطويل وتريث وتفصيل ، لأن التذكير بالنعمة يقتضي التريث والتفصيل

فالقسم الأول من الصورة وهو نزول الماء من السماء يعرض هكذا:

« اللهُ الذي يُرسلُ الرياحَ ، فتُثيرُ سَحاباً ، فيبسُطُه في السماءِ كيفَ يشاء ، ويجعله كِسَفاً ، فترَى الودقَ يَخرُجُ مِنْ خلاله ، فإذا أصابَ به من يشاء من عباده إذا هُم يَستبشرونَ »

والقسم الثاني بعد وصول الماء إلى الأرض يعرض هكذا :

« ألمْ ترَ أنّ اللهَ أنزل من السَّماءِ ماءً ، فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ في الأرضِ ، ثمّ يُخرِجُ بهِ زَرْعاً مختلفاً ألوانُه ، ثمّ يَهيج فتراه مُصفَرّاً ، ثمّ يَجعلهُ حُطاماً »

فالرياح تثور ، فتثير السحب في السماء ، فيتراكم السحاب ، فيخرج منه المطر ، فينزل المطر من السماء ، فيستبشر به عباد الله فإذا نزل إلى الأرض ، فلا يختلط بالأرض ولا بنبات الأرض — كما حدث هناك — إنما يسلك ينابيع . « ثم » — في تراخ — يخرج به زرعا . « ثم » — مرة أخرى — يهيج فتراه مصفراً — وفي الوقت مهلة لتراه — « ثم » مرة ثالثة يجعله حطاما . « يجعله ! » وهناك « أصبح هشيما » كأنما يصير هكذا من نفسه بلا حاجة إلى مصير !

وفي مشاهد القيامة مثل هذا الإطناب وذلك الإيجاز ، وفي المواقف القصصية . وفي كل موضع يقتضي التفصيل أو الإجمال ، فالقرآن في هذا خارج على مأثور النثر العربي . متميز بخصائصه الفنية في كل موقف وفي كل حال .

* * *

فلننظر في السمة الثانية من سمات اللغة العربية في تلاؤم الألفاظ . وهي السجع والازدواج . والازدواج بشكل خاص :

« فالازدواج على إطلاقه ، والسجع على تقييده ، يؤلفان الموسيقية فى الأسلوب البليغ ، منذ كان للعرب ذوق ، وللعربية أدب . فليست الحال فيهما هى الحال فى سائر الأنواع البديعية التى نشأت فى الحضارة ونمت بالترف ، وسمجت بالفضول . وفسدت بالتكلف . فالذين ينكرون على من يحسنون التأليف بين الأصوات ، والمزاوجة بين الكلمات ، والمجانسة بين الفواصل ، إنما ينكرون جمال البلاغة وجميل البلغاء فى دهر العروبة كله .

وإذا أقررناهم على أن ذوق العصر لا يسيغ ذلك البديع الذى أولع به كتاب العصر الخامس ، ومن خلف من بعدهم ، فذلك لأننا لا نقحم فى ذلك البديع تلك الأنواعَ التى تحسب فى عناصر الأسلوب ، وتنسب إلى خصائص اللغة ، كصحة المقابلة ، وحسن التقسيم ، وائتلاف اللفظ مع المعنى ، واتفاق الفقرة والفقرة فى الوزن ، أو اتحاد الفاصلة والفاصلة فى الرويّ .

« وأقطع الحجج على أن الازدواج والسجع من لوازم الأسلوب العربى أن القرآن ، وهو « كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، قد تجوّز فى بعض الألفاظ والصيغ محافظة عليهما »

ونحن لا نجادل الأستاذ فى أن السجع والازدواج أساسان من أسس النثر العربى المأثور — وندع الحديث عن القرآن إلى موضعه — ولا نجادله فى أن فيهما جمالا حين يحسن استخدامهما

ولكن هذا لا يعنى أنهما مفروضان ضربة لازب على الأساليب المصرية .

وقبل كل شىء نود أن نقرر فى صراحة : أنه إذا كان فى اللغة العربية شعر يبلغ نهاية الجودة وقمة الفن — فى بعض الأحيان — فإنه ليس فى اللغة العربية نثر يتسم بهذه السمة ! إن الأسلوب النثرى المأثور فى اللغة العربية أسلوب متخلف متصنع تنقصه الطلاقة والحيوية والاندفاع . ولم يبلغ النثر العربى يوما ما بلغه على أيدى كتاب العصر الحاضر الذين أطلقوه من قيوده البطيئة فى التعبير والتنغيم على السواء .

وهذه حقيقة تنفعنا ، فإنه إذا جاز أن نتجه إلى الشعر العربى المأثور[1] للمحاكاة والانتفاع ، فلا يجوز أن نتجه إلى النثر العربى المأثور إلا لتكوين الذوق اللغوى ، لا المحاكاة الفنية .

وإيقاع السجع والازدواج — على تفاوت بينهما — هو إيقاع « التقاسيم » الشرقية فى الموسيقى ، فيه الإرنان التوازى أو التقابل . ولكن تنقصه التموجات العريضة العميقة ، وتنقصه الرفرفة الخفيفة والاندفاعات الطليقة . وهو على أية حال ليس إلا لوناً واحداً من ألوان الإيقاع لا يصلح لجميع الأحوال . والتناسق الحقيقى هو اتفاق صورة الكلام وإيقاعه مع طبيعة الشعور الذى انبعث عنه والجو النفسى الذى يصوره . وهو بهذا الوضع جزء من دلالة العبارة كالمعنى الذهنى سواء . والسجع والازدواج لا ينفسحان عن جميع الصور النفسية .

ثم نصل إلى الحديث عن القرآن .

وأنا الذى ألفت كتابا كاملا عن « التصوير الفنى فى القرآن » وأبرزت سمة « الإيقاع الموسيقى » فى هذا التصوير ، لا أتردد فى الجهر بأن القرآن لم يستخدم السجع والازدواج فى كافة أغراضه بل استخدمهما فى المواضع الخطابية التأثيرية . وفى هذه المواضع وأمثالها دون سائر الأغراض يحسن السجع والازدواج .

فإذا خطر لنا أن نتأثر أسلوب القرآن ، فلنعرف مواضع كل طريقة من طرق الأداء فيه . ولنفرق بين السمات المطردة فيه ، والسمات الخاصة بموضع دون موضع .

فطريقة التعبير بالتصوير سمة مطردة . أما الإيقاع فى السجع والازدواج فسمة موضعية .

ومن هنا يأتى الخطأ لجماعة ممن يعن لهم تقليد أسلوب القرآن فى العصر الحديث . فهم لا يقلدونه فى طريقة التعبير بالتصوير . ولكن فى طريقة تركيب الجمل ، وتنسيق العبارات ... ولقد دعوت مرة إلى التأثر بطريقة الأداء القرآنية ، وعنيت بها الصور والظلال وتجانس الصور والإيقاع . ولكننى لم أعن تركيب الجمل على النسق القرآنى فى كل المواضع والموضوعات . وهناك أساليبه الطليقة التى استخدمها للشرح والتقرير ، والأساليب التأثيرية التى استخدمها فى مواضع خاصة تصلح لهذه المواضع ، ولا تطرد فى كل المواقف .

وهذا مفصل القول فى هذا الموضوع الدقيق .

(البحث بقية) **سيد قطب**

(١) أنا أستخدم كلمة مأثور مقابل « كلاسيك » وأرى أنها تدل على كامل معناها بشطريه : الجودة والاتباع بخلاف كلمة تقليدى . أو اتباعى فانها تغفل شطر المعنى . وهو سبب تقليده واتباعه .

المفتى المهـــاجر

للاستاذ توفيق محمد الشاوى

« فلسطين ! وما فلسطين ؟

هى الوطن ، إذا كان الوطن أن نعيش فيه سادة أحراراً .

وهى الدين ، إذا كان الدين أن نذود عنه أعزة كراماً .

وهى الأمل ، إذا كان الأمل هو كل مايملك النفس ويحركها.

وهى الحلم ، إذا كان الحلم هو كل ما يشغل القلب ويجذبه مهما كانت حجب الزمان والمكان

فلسطين ! هى ذلك التاريخ الحافل الذى حفظته الدنيا ، فلن يمحى بعد ذلك !

هى ذلك المجد الخالد الذى صنعه الآباء ، فلن يحايدونه الأبناء!

هى ذلك التراث المجيد الذى يملكنا ونملكه ، هو لنا الماضى، ونحن له المستقبل !

نعم ! وهى هى التى دعتنى إلى الفراق حين فُرضَ الفراق ، وتدعونى إلى اللقاء حينما يجب اللقاء ... »

لعل هذه هى الخواطر التى شغلت دائماً هذه النفس الهادئة القوية ، وملأت هذا القلب الطاهر العميق ، وإنك لتستطيع أن تقرأها واضحة ناطقة فى هذا الوجه الباسم المطمئن ، وهاتين العينين الصافيتين الهادئتين ، عينى المفتى مفتى فلسطين الكبير !

إنك لتراها واضحة لأنها تصدر عن فكرة قوية هادئة ، تعبر عن إيمان صادق عميق ، وثقة ثابتة لا تتزعزع ، تلك هى العقيدة الإسلامية الخالدة التى تمثلت فى تاريخنا الحافل ، ولا يمكن أن يجحدها جاحد ، وخاصة إذا تمثلت فى رجل عظيم !

فكرة تكسب الرجل قوته وعظمته التى عجزت أمامها « السياسة » الإنجليزية الماكرة ، وأفلست حيالها كل المكايد الاستعمارية الخادعة ... أخرجته من فلسطين إلى لبنان ، ومن لبنان إلى العراق ، ثم منها إلى إيران ، ومن إيران إلى تركيا فأوربا ، وها هى أوربا قد قلبت رأساً على عقب ، وهو هو تطورت الأحداث ، وهو ثابت لم يتزعزع بإيمانه القوى الثابت وفكرته التى خرج بها من بلاده ، والتى تجمعها هذه الكلمة التى لا تبرح خاطره ولا تغادر قلبه « فلسطين » !

« من أجلها استوى عنده الشرق والغرب والقرب والبعد ! ومن أجلها خرج عن المال والولد ، وطابت له الهجرة ، ولكن إلى حين ! من أجلها دار هذه الدورة التاريخية من الشرق إلى الغرب ، مخترقاً قلب هذه القارة الطاغية الجبارة « أوربا » فى سبيل تلك الغاية الواحدة « فلسطين »!

وإنه ليقيم فى باريس ، فى ضيافة فرنسا ، فى تلك الفيلا الهادئة المنعزلة قرب « السين » ، فهلا يستريح ؟ كلا ! وأى نجم فى السماء يستريح ؟ كلها تدور كما دار هو صابراً ثابتاً ، من برج إلى برج ، فى هدوء وإشراق ، لا تقف فى منتصف الطريق ، لا بد من أن تتم الدورة ، لا بد من « العودة » إلى هذه النقطة التى بدأ منها ، والتى اتجه إليها دائماً بروحه وقلبه ، والتى يعيش من أجلها ... فلسطين أنشودته الخالدة :

فلسطين يا فلسطين أنت لى دنيا ودين !

الإنجليز يطاردون، واليهود يترصدون، والفرنسيون مترددون مراقبون ، ولكنه هادئ باسم ، لأنه مؤمن ولأنه واثق : مؤمن بالحق، وواثق بالله... مؤمن بأنه يجب أن يعود ، وواثق بأنه سيعود!

وماذا يكلفه ذلك ؟ إنه لايملك شيئاً إلا روحه ، وهى رخيصة فى سبيل غايته ، لقد عرضها على الموت فى كل آن ، منذ أن بدأ جهاده فى سبيل الحق وهو يبحث عن الموت ويطلبه فى سبيل بلاده وعقيدته ، ولكن الموت عنيد لا يطلب من يطلبه ... فليجاهد حتى الموت !

وكيف يعود ؟ لا بد من إذن الحكومة الفرنسية ، ورضاء الحكومة الإنجليزية وطلب الحكومات العربية، ولابد من إجراءات دبلوماسية تطول ، وعقبات سياسية لا سبيل إلى تذليلها الآن !

كلا ! دعوا كل هذا ، واقرأوا هذا الوجه الهادئ الواثق ، هناك ابتسامة عريضة تكاد ترسم قوساً تحت هذا الأنف العربى الأشم ، إنه سيعود ، إنه لايفصله عن غايته إلامثل هذا القوس ، الطريق من باريس إلى الشام لن يكلفه أكثر من هذه الابتسامة المؤمنة الهادئة ، ما دام أنه يجب أن يعود ، فلا بد أن يعود ، ولا يمكن أن يبقى تحت رحمة السياسة والدبلوماسية ، وخير له أن يخاطر ليعرض روحه على الموت مرة أخرى فى سبيل غايته ، فإنه سيبلغ بلا شك إحدى الحسنيين ! دين آبائه وأجداده من قبل ! فليمد مخاطراً مجازفاً كما خرج مخاطراً مجازفاً ، سواء رضيت انجلترا أو لم ترض ، وسواء أذنت فرنسا أو لم تأذن ... لا بد من العودة ... لا بد منها ... فلسطين ... الشام ... وقد كان !

توفيق محمد الشاوى
مدرس بكلية الحقوق بجامعة فؤاد

التطورات السياسية
فى الشرق الأقصى

للأستاذ محمد جنيدى

[تتمة ما نشر فى العدد الماضى]

يتولى الحكم فى أندونيسيا نائب عن الملكة ولهلمينا يدعى باسم الحاكم العام ، يساعده مجلس مكون من رؤساء المصالح الكبيرة ، المالية ، والحربية ، والبحرية ، والمدلية والاقتصادية وهم هولنديون ، طبعاً ! . ويسمى هذا المجلس « Raad Indie » المجلس الهندى ، ويساعده أيضا المجلس النيابى .

وفى يناير ١٩٢٠ أنشأ بعض رجالات جزيرة « Madoera » حزب « شركت مادورا » عاملا لتقوية الحركات التحررية فى هذه الجزيرة . وفى ٨ مايو ١٩٢٠ تأسست جمعية سياسية فى جزيرة « سيليبيس » باسم « شركة أمبون » لا تخرج غايتها عن غايات الأحزاب الوطنية التى ظهرت قبلها .

وخلال عام ١٩١٩ حدثت عدة اضرابات فى المرافق العامة إظهاراً للشعور المكبوت من سياسة الحكومة الهولندية فى إدارتها أمور البلاد بطرق دلت على الاستغلال والاستعباد للشعب ، وأشهر حوادث الاعتصاب : الاعتصاب الذى قام به موظفو وعمال الترام بين مدينة « سمارانج شريبون » ثم موظفو وعمال ترام سومطرة الغربية ، ثم موظفو وعمال مطبعة سورابايا الأميرية ، ثم إضراب نقابات الخياطين الوطنيين ، ثم الإضراب النهائى الكبير فى مصانع السكر العائدة للامبريالية الغربية ، فشلت حركاتها أياماً .

فى عام ١٩١٧ حاول الدكتور سمون والمستر تان ملاكا والمستر عالين نشر المبادىء الاشتراكية الحديثة فى حزب الرابطة الإسلامية . فهؤلاء الثلاثة كانوا أعضاء فى فرع حزب الرابطة الإسلامية بمدينة « سمارانج » وقد تلقوا مبادىء الاشتراكية من المستر سنفليت الهولندى مؤسس الحزب الاشتراكى الديمقراطى فوقف لهم زعماء الرابطة موقفا رائعا ، صدوا المبادىء الشيوعية من الولوج فى المجتمع الإسلامى بأندونيسيا ، وبعد مجادلات فى الصحف وفى الأندية . انفصل اشتراكيو « شركة اسلام » منه وأنشأوا حزباً سياسياً باسم « شركة اسلام ميرة » أو « الرابطة الإسلامية الحمراء » بزعامة الدكتور سمون . وأما « شركة إسلام » الأصلية فقد زيدت فى اسمها كلمة واحدة ، وأصبحت تدعى باسم « الرابطة الإسلامية البيضاء » برئاسة شكرى أمينوتو . ثم أبدل زعماء الرابطة الإسلامية الحمراء اسم حزبهم إلى « شركة رعيت » أو « حزب الأمة » وانتشرت فروعه فى القرى والمدن وكانت الروح المادية الامبريالية تكتسح المجتمع الأندونيسى وتهز دعائم الحكم الهولندى . وفى ٢٣ مايو ١٩٢٠ ظهر حزب الأمة بمظهر جديد ، فقد بدل اسمه إلى « الحزب الشيوعى الأندونيسى » « Partai Kommonis Indonesia » المرموز إليه بحرف « P. K. I. » ويعد هذا الحزب أكبر الأحزاب الأندونيسية المتطرفة ، ومبادئه العمل الإيجابى لإزالة الاستعمار الهولندى من أندونيسيا .

وفى عام ١٩٢٢ سافر الدكتور سمون إلى أوروبا ومنها إلى موسكو للاتصال بمركز قيادة الحزب الشيوعى الروسى واطلع على نظمه وبرامجه ومؤسساته ، ثم عاد إلى أندونيسيا . ومنذ ظهور الحزب الشيوعى فى المسرح السياسى اشتعلت أندونيسيا ناراً ، فالمبادىء الشيوعية تنتشر فى القرى والمدن ، والأفكار الحرة تهدم معاقل الاستعمار .

من شهر نوفبر ١٩٢٦ إلى يناير ١٩٢٧ اندلعت نار الثورة الشيوعية الكبرى فى أندونيسيا ، أشعلها الحزب الشيوعى الأندونيسى ، فكافحتها السلطة الهولندية كفاحاً عظيما استعملت خلاله المدافع الرشاشة والدبابات والسيارات المصفحة . أما الأندونيسيون فكانت أسلحتهم المسدسات والقنابل اليدوية ! . واستطاعت الحكومة الهولندية بإتحادها لقواتها الكثيفة التى قذفتها إلى ميدان الثورة . وبعد انجلاء الموقف سجنت السلطة الهولندية « ٤٥٠٠ » أندونيسى شيوعى ، ونفت أيضاً إلى غينيا الجديدة « ١٣٠٨ » شيوعيين !

فى ٤ يوليو ١٩٢٧ أنشأ الدكتور سوركانو « اتحاد الشعب الأندونيسى » وساعده فى إنشائه المستر سر تونو ، والمستر إسحق

والمستر بودترات ، والمستر سوجادى ، والدكتور شفتو ماعون كسومو . وفى ديسمبر ١٩٢٨ عقد الحزب مؤتمره الأول بمدينة سورابايا ، وقررت الهيئة الرئيسية للحزب إبدال إسم الحزب . فسمى « الحزب الوطنى الأندونيسى » برئاسة الدكتور سوكارنو فأنشأ هيئات عسكرية من الشباب سميت بفرقة الهجوم . وفى هذا الظرف كان الشعب الأندونيسى يترقب مصير الحكم الهولندى فى أندونيسيا ، حيث أن الحزب الوطنى كان أقوى حزب سياسى فى أندونيسيا ، سياسته رفع السيادة الأجنبية عن أندونيسيا . وفى نهاية عام ١٩٢٩ داهمت جنود الحكومة الهولندية دار الحزب الوطنى بمدينة « باندونج » فجمعت أوراقه ومستنداته ، ثم داهمت أيضاً فرقة من الجنود الهولنديين « ٥٠ » مدينة فى أندونيسيا فيها فروع الحزب ، وقبضت على « ٣٠٠ » عضو من أبرز أعضاء الحزب . أما رئيس الحزب فقد سيق إلى السجن ليلا والأسباب التى دعت الحكومة الهولندية إلى إجراء هذا العمل شعورها بثورة يشعل نارها الحزب الوطنى فى غرة عام ١٩٣٠ لما رأت منه من الأعمال الثورية منذ ظهوره فى الميدان السياسى . وبعد محاكمات طويلة قررت السلطة الهولندية سجن الدكتور سوكارنو أربع سنوات ، وسجن كل من المستر غاتوت والمستر ماسكون والمستر سوفريا والمستر سنغيه مدداً مختلفة . أما الدكتور سوركارنو فقد قضى عامين مسجونا فى سجن « سوكا مسكين » بسورابايا ، وأنقص عامان من مدة سجنه بأمر من الحاكم العام وأما الأعضاء الآخرون فقد أعوا مدة سجنهم .

فى ٣١ ديسمبر ١٩٣١ خرج الدكتور سوكارنو من السجن فوجد أتباعه قد انقسموا إلى قسمين : قسم برئاسة المستر سرتونو وقسم آخر برئاسة الدكتور محمد حتى . فانضم إلى « الحزب الأندونيسى » أو « Partindo » بزعامة المستر سرتونو . ثم فى عام ١٩٣٢ أسند إليه رئاسة الحزب ، وبدأ عمله السياسى كما كان وفى ٥ مارس ١٩٣٣ قبض عليه ثم نفى إلى جزيرة فلورس . وفى عام ١٩٣٦ أعيد إلى مدينة « بنكولين » بجزيرة سومطرة ، ثم عهدت إليه الجمعية المحمدية الأشراف على أقسامها الثقافية بفرعها بهذه المدينة .

أما الدكتور محمد حتى فقد أنشأ بمساعدة الدكتور شهرير « حزب التربية الأندونيسية » وكانت مبادئه تحرر أندونيسيا من الاستعمار الهولندى . وفى ٢٥ فبراير ١٩٣٤ ضربت السلطة الهولندية بيد من حديد على هذا الحزب . فنفت رئيسه الدكتور محمد حتى إلى جزيرة « بندانيرا » والدكتور شهرير إلى غينيا الجديدة ، وهكذا تضرب الأمبريالية الغربية الحركات الشرقية التحررية .

وفى ديسمبر ١٢٩٧ تألفت هيئة سياسية باسم : « اتفاق الهيئات السياسية القومية الأندونيسية » أو « Permoepatan Perkoempoelan Poliek Kebangsaan Indonesia » ، المرموز إليه بالحروف الأولى « P. P. P. K. I. » لاتخاذ مناهج سياسية مستقيمة لمقاومتها الاستعمار الهولندى ، وتولى رئاستها المستر محمد حسنى تمرين من حزب « أندونيسيا الكبرى » ، وتكونت هذه الهيئة من حزب « بودى أوتومو » وحزب « الرابطة الإسلامية » وحزب « قوم بتاوى » و « سومطرة بوند » وأدت هذه الهيئة خدمات سياسية فى صالح الشعب .

فى ١٦ أكتوبر ١٩٣٠ أبدل الدكتور ستومو « نادى التعليم » إلى حزب سياسى باسم « اتحاد الشعب » للتكاتف مع الأحزاب السياسية فى كفاح الاستعمار . وفى ٢٩ أبريل ١٩٣١ أنشأ الدكتور أمير شرف الدين حزب النهضة الأندونيسية « Garindo » للعمل لتحرير أندونيسيا من الاستعمار الغربى . وقد استطاع الدكتور أمين الدين بجهوده العظيمة إيجاد حالة سياسية للشعب أوضحت له أن أعماله وجهاده ستثمران بعد سنوات قليلة ، ومنذ نشأت الجمهورية فى أندونيسيا تولى الدكتور شرف الدين وزارة الأخبار ثم عين إلى وزارة الداخلية ، ثم عين إلى وزارة الدفاع ، ولا يزال يشرف عليها للآن .

وفى ١٤ سبتمبر ١٩٣٠ أنشأ المستر محمد يمين « حزب الشعب الأندونيسى » ، وكانت سياسة حزبه ترمى إلى الاستقلال التام لأندونيسيا أو البقاء تحت الاستعمار ! أما إنشاء حكومة ذاتية أو غيرها من أنواع الحكومات فليس من الحكمة الرشيدة ، والسياسة المستقيمة ! ويتولى اليوم المستر محمد يمين منصب حاكم جاوا الغربية .

وفى ٢٤ ديسمبر ١٩٣٥ أدغم الدكتور ستومو حزب

ديودي أوتومو ، وحزب اتحاد الشعب ، وحزب دشركت سومترا ، وأخرج منها حزباً سياسياً كبيراً هو «حزب أندونيسيا الكبرى»

اتبع الحزب سياسة معتدلة تجاه السلطة الهولندية ، وكان عمله الأول متجهاً نحو الحياة الاقتصادية والحياة الثقافية . فمؤسساته الاقتصادية :

١ — البنك الوطني الأندونيسي . وله فروع كثيرة في أهم المدن الأندونيسية ويؤدي الأعمال التجارية .

٢ — شركة الملاحة الوطنية .

٣ — المعهد الزراعي . ومؤسساته الثقافية : ١ — معهد التربية الأندونيسي ٢ — دور للأيتام ٣ — مدارس ثانوية ٤ — مدارس شعبية عامة ٥ — هيئة للأيتام ٦ — دور للأطفال لحمايتهم من داء — G. M. I. إدارة للصحافة والنشر .

في ديسمبر ١٩٣٦ أسس بعض الزعماء الأندونيسيين « الحزب الإسلامي الأندونيسي » لعمل خطة سياسية إسلامية يسير عليها الشعب الأندونيسي المسلم في جهاده في سبيل استقلاله وتولى رئاسة الحزب « رادين ويووهو » العضو بالمجلس النيابي . وساعده في إدارته الدكتور سوكيمان ، والمستر كسمات والدكتور سوكاردي . وقد جعل الحزب مبادئه مستمدة من القرآن والحديث مع مراعاة سير التطورات السياسية في الشرق والغرب . وأعطى لرئيس الحزب التصرف المطلق حتى لقبته الصحافة الوطنية بلقب «دكتاتور» ولهذا الحزب وزير في الحكومة الأندونيسية الحديثة هو الدكتور محمد ناصر ويشغل وزارة الاستعلامات ، وكان قبل نشوب الحرب الأخيرة رئيساً لفرع الحزب بمدينة سورابايا .

في ٢١ مايو ١٩٣٩ أنشأ المستر أبيكوسنو زعيم حزب « شركت إسلام أندونيسيا » والمستر محمد حسني تمرين وكيل حزب « فرندرا » والمستر أمير شرف الدين زعيم حزب النهضة الأندونيسية . أنشأ هؤلاء رابطة سياسية باسم « Gaboengan Politiek Indonesia » والقصد السامي لها توحيد الأحزاب السياسية الوطنية للعمل متحدة في سبيل تحرير أندونيسيا من السلطة الغربية ، والأحزاب التي اشتركت في هذه الرابطة السياسية هي :

١ — حزب أندونيسيا الكبرى .

٢ — حزب النهضة .

٣ — حزب الرابطة الإسلامية .

٤ — حزب الإتحاد الميناهاسي .

٥ — حزب فاسوندان .

٦ — الحزب الإسلامي .

وأول عمل قامت به هذه الرابطة مطالبة السلطة الهولندية بانشاء برلمان . وقامت الرابطة بدعاية واسعة النطاق لمشروع البرلمان في الدوائر الأندونيسية والهيئات الهولندية . وفي ٢٣ — ٢٥ ديسمبر ١٩٣٩ أقامت الرابطة مؤتمرا قومياً باسم « المؤتمر القومي الأندونيسي » بمدينة جاكرتا لبحث ما وصل إليه زعماء الرابطة من أعمال مشروع البرلمان . واشتركت الجميات الأندونيسية في هذا المؤتمر إعلانا لتضامنها وشعورها نحو الرابطة ، وبعد انعقاد المؤتمر قدمت الرابطة مذكرة إلى المجلس النيابي بطلب إنشاء برلمان للبلاد ، أوضحت فيها مستوى ما وصل إليه الشعب من الثقافة والتربية السياسية ، ثم أحال المجلس النيابي مذكرة الرابطة إلى البرلمان الهولندي بلاهاي ، فأغمضت هولندا عينيها وتجاهلت الحالة في أندونيسيا .

هذه خلاصة تاريخية للتطورات السياسية والحركات الاستقلالية في أندونيسيا . فلعل القارىء تمكن من تصور حقيقة الشعب الأندونيسي ، والتكهن بمستقبله بعد أن أعلن استقلاله بين أصوات المدافع وهدير الطائرات ، ثم خطى خطوات موفقة بين الأشلاء والدماء ! ...

محمد جنيدي

في خطبة للنشاشيبي :

كتاب أحمد شاكر الكرمي

كان وعد في «الرسالة» في المقالة (الفيلسوف أمين الريحاني) — رحمة الله عليه — أن ينشر كتاب النابغ الناقد مازنيّ الشام وعقّاده، المأسوف على آدابه وشبابه الأستاذ (أحمد شاكر الكرمي) صاحب صحيفة (الميزان).

و (كتاب أحمد) هو في خطبة للنشاشيبي اسمها (كلمة موجزة في سير العلم وسيرتنا معه) قالها منذ أربع وثلاثين سنة في الحرب الكبرى الأولى، في كلية صلاح الدين الأيوبي، في بيت المقدس.

وهذا هو الكتاب :

سيدي الأديب الجليل :

وصلتني «كلمتك الموجـــزة» فكنت أعتلك وأنا أتلو سطورها، مدرها من نحول الجاهلية فهرتصاريف الأيام، وحظي بنعمة الخلود، وقام يقرع مسمع الدهر بآيات العلم والعرفان في عصر العلم والنور.

إني مدين لرسالتك بنشوة السرور التي خامرت قلبي في زمن لا يبعث كل ما فيه إلا على الحزن والأسى، فقد أطربني حقاً وجود أديب بين ظهرانينا يجلو أسرار العلم الحديث ومعجزاته في هذه الحلة العربية القشيبة في زمن استعجم فيه أبناء الضاد، وكادوا يضيعون آخر الذخائر وأثمن النفائس التي ورثهم إياها أسلافهم الأبرار.

وإني لأرجو أن تدفعك غيرتك على هـذه اللغة المجيدة التي قلّ أنصارها إلى الإكثار من هذه الآثار التي تعتز بها دولة الأدب، وتهتز لها أعطاف البلاغة. والسلام عليك من أخ مخلص يجلّ منزلتك، ويكبر أدبك وبيانك.

دمشق الشام في ١٨ آذار ١٩٢٢ أحمد شاكر الكرمي

وهذه شذرة من الخطبة التي شرّفها وأعلى قدر منشيها اسم النبي محمد فيها[١].

« ثمّ أتى على العالم من بعد ما اجتلى من الحكمة الاغريقية والعلم الأغريقيّ الذي اجتلاه حين من الدهر كرّبت تضمحلّ فيه آثارُ هذه الحكمة. وتنطفىء من سمائها أنوارُ دراريُّ طالما هدت السارين، وأرشدت الضالين. (وبينما العسر إذ دارت مياسير) وبينا العالم يرتقب هاديه وقد تطاول ليلُ ضلاله وحيرته صات صائتٌ في فلاة لم تعتدِ الناسُ أن تسمع فيها للخير دعاء. فأرهفَ لاستماع ما يقول الصوتُ أذنه : فإذا هو يوقظ الهاجد في عماه، وينبه الغافل من كراه، وينادي إلى الحق وصراط مستقيم. وذلك الصائت هو سيدنا وزعيمنا وإمامنا ومُصلحنا. وقرة أعيننا، ومهوى أفئدتنا ؛ شرّفُ العرب بل المشارقة بل قطين الأرض قاطبة. موحّدُ أهواء أهل (الجزيرة) المتشتة. والمؤلف بين قلوبهم المتفرقة، ونازع ما في صدورهم من غلّ. والكادح الجاهد في إعزاز مكانتهم وإعلاء كلمتهم، وتمليكهم الدنيا، مهدّم عروش الطغاة والجبابرة من الأكاسرة والقياصرة. محرّر الشرق من الغرب. مخرج هرقل من سوريّة. وطارد كل طاريءٍ أوربيّ من كل قطر أسيوي أو إفريقيّ ذو الخلق العظيم والكتاب الكريم. شائد الوحدة العربية وصفوة النوع الانسانيّ، وأكبر معاني الكون (محمد بن عبد الله) فتبدّلت الأرض في ذلك الوقت غير الأرض، وارتدت من الخير بجلباب كانت قد نضته، ورحّبت وأهّلت بما قلّته من الحكمة واجتوته، وغدا آباؤنا إلى طلل العلم الدارس والدنية الطامسة. فشادوا في مكانه صرحاً لها مُمَرّداً ».

ذلكم ما أملى عليّ، فكتبته، ورويته. ولم يزد مملي الكلام وكاتبه حرفاً.

السهمي

(١) يقول النشاشيبي في مقدمة الخطبة التي سماها (كلمة أمام الكلمة) : وما حسن هذه الكلمة إلا أنها تجملت بذكر النبي، وتزينت بالتنويه بالمصلح العربي، فجملت وحسنت، وصبحت وملحت، وما هي بالصبيحة ولا المليحة.

الشاعران المتشابهان (*)

الشابي (التونسي) والتجاني (السوداني)

للأستاذ أبي القاسم محمد بدري

الشابي :

انحدر أبو القاسم الشابي من أسرة عريقة ذات مجد ودين ، قبيلته الشابية ، وبلدته توزر عاصمة الواحات التونسية . شدا طرفا من علوم الشريعة الإسلامية كالفقه والتوحيد والأصول ، وأخذ نصيباً من الثقافة العربية كالنحو والصرف والبيان والأدب . درس ذلك على الأساليب العتيقة ، من متن وشرح وحاشية . وفاز بشهادة « التطويع » في جامع الزيتونة ثم التحق بمدرسة الحقوق ، وحصل على إجازة الحقوق . ثم أصيب بداء الصدر الذي صده عن إتمام دراسته ؛ فانقطع عن العلم والتفت إلى معالجة المرض العضال الذي ظل معه يغاديه ويراوحه ، حتى اخترم حياته في ربيع شبابه .

التجاني :

أما التجاني يوسف بشير فهو شاب ينتمي إلى أسرة من كرائم الأسر السودانية سليلة أعرق القبائل العربية . تلقى تعليمه في المعهد العلمي بأم درمان . فاستقى من نبعه الصافي علماً واسعاً وأدباً رائعاً ، وأعانه ذوق مرهف وذكاء وقاد على فهم الحقائق العلمية ، وتمييز الدقائق البيانية والاشتغال بها مع العلوم الدينية في زمن سادت معهده فيه أساليب التعليم العتيقة التي لم تعن بفن الأدب عنايتها بعلوم الدين . وأصيب أيضاً بداء الصدر العضال الذي غالبه حقبة من الزمن، ثم صرعه المرض وهو في سن باكرة نضج فيها إنتاجه ، وبلغ ذروة الإتقان وموضع الافتنان . وافاه الأجل المحتوم وهو ناضر الصبا ريان الشباب في مقتبل حياته الأدبية ، ومفتتح عبقريته الشعرية ؛ وأمته وأسرته أحوج ما تكونان إليه ، لأعواز العوض عنه وعظم الفجيعة فيه .

وجه الشبه في حياتهما :

نشأ في بيئة دينية محافظة ونهلا من فيض الثقافة العربية الإسلامية العربية ، ثم تأثرا بالأدب الغربي في قراءة الكتب المترجمة لأن كليهما لم يدرس لغة أجنبية وقد اتفق أن نظرتهما للحياة كانت متقاربة التقارب كله ؛ وليس هذا يحدث إلا في النادر القليل . رغب كلاهما عن الحياة العابثة الماجنة ، ونزعا نزعة التصوف والزهد وسخطا على عيشهما ، وتبرما بقومهما ، وتشاءما من حياتهما تشاؤماً ، مبعثه حب الإصلاح وانتقاد ما يريان من أحوال وأعمال . وأودعا كل ذلك في شعر رائع زاخر يجيش ثورة واضطراما على التقاليد ، ويفيض ناقماً على المنازعات والحزبيات ، ثم يتدفق عذوبة ويتفجر إخلاصاً وحماسة في معالجة المشكلات وتقوية الأواصر والصلات بين المواطنين المخلصين وأبناء العروبة الغر الميامين .

وتشابها أيضاً في العلة فقد اصطلح عليهما داء الصدر الذي عاق نموهما الجسمي وتقدمهما العقلي في العمل والتفكير ؛ فماتا في عنفوان الشباب عندما تفتقت زهرتاهما عن أكمامهما عبقتين فواحتين بأريج النضج والاكتمال ، وشذى الإنتاج والإبداع .

ومن غريب مصادفة القدر أن فقدهما حدث في زمنين متقاربين . مات الفقيدان طيب الله ثراهما وأخلد ذكراهما — بعد أن اقتطفا من متاع الحياة خمسة وعشرين ربيعاً لم ينعما فيها بأطايب العيش ولذائذ الحياة ، ولم يستكملا فيها مراحل تطورهما في النظم والتصوير ، وابتكار النماذج العالية الخالدة في الأدب الشرقي والشعر العربي المستقى من الفن الغربي والمذهب الواقعي .

المشابهة في طريقة النظم والتعبير :

من الواضح أن الشعر عمل فني يقوم على أشياء لا على شيء واحد . فلا بد له من الصورة الفنية والموسيقى الجميلة والخيال البارع . ومعلوم أن المقصود بالمشابهة في النظم والتصوير هو الشبه بينهما في لغة الشعر .

فما هي لغة الشعر إذن ؟ هي أداة يستخدمها الشاعر في فنه قوامها الألفاظ والكلمات التي لا تخرج كثيراً عما يتحدث به

(*) عاش أبو القاسم الشابي من عام ١٩٠٩ إلى ١٩٣٤ م ؛ وعاش التيجاني يوسف بشير من سنة ١٩١٢ إلى ١٩٣٧ م

الناس ويكتبونه ويتخاطبون به . وبهذه الأداة المألوفة يستطيع الشاعر أن يخرج فناً يفوق جميع الفنون .

وبما أن الشعر الصحيح ينبعث دائماً من إحساس قوى ممتاز ، فالشاعر ملزم حينئذ أن يتخذ للتعبير عنه لغة خاصة متجانسة مع هذا الإحساس . فليس المعنى وحده هو الذى يؤثر فى النفوس ؛ بل إن الألفاظ — التى هى منه بمثابة الجسد من الروح لها تأثيرها الخاص . فنى الشعر الرصين ينبغى للفظ :

أولا : أن يتجانس مع المعنى فيكون رقيقاً فى مواضع الرقة ، قوياً عنيفاً فى مواضع العنف والقوة .

ثانياً : أن يكون اللفظ على قدر المعنى ، فلا يكون هناك حشو ولا زيادة ، ولا قصور فى الدلالة على المعنى .

إذا أنعمنا النظر فى شعر هذين الشاعرين نجد المشابهة قوية أخاذة ذات سحر وجلال ينفذان إلى شغاف القلوب ويؤثران فى طوايا النفوس . قال الشابى يصف الجنة الضائعة : —

كم من عهود عذبة فى عدوة الوادى النضير
كانت أرق من النسيم ومن أغاريد الطيور
وألذ من سحر الصبا فى بسمة الطفل الغرير
أيام كانت للحياة حلاوة الروض المطير
وطهارة الموج الجميل وسحر شاطئه المنير
ووداعة العصفور بين جداول الماء النمير

فنى الأبيات المتقدمات يسكب الشاعر ذوب نفسه وعصارة فكره ؛ وهو يتشوق إلى العهود العذبة التى قضاها فى الوادى النضير ؛ ويتحسر على ضياعها ، لأنها كانت تسمو على كل لذة من لذائذ الوجود وتفوق كل متاع من متع الحياة . ألم يقل إنها أرق من النسيم ومن أغاريد الطيور ، وألذ وأمتع للنفس من سحر الصبا وبسمة الطفل الغرير . وهل يوجد فى الوجود شىء يعدل هاتين اللذتين فى العذوبة والطهارة والوداعة والجمال .

ألا تسمع إلى رنين جرس العبارات وحلاوة الألفاظ والتعبيرات فى الكلمات التالية . — سحر الصبا — بسمة الطفل — طهارة الموج — وداعة العصفور . إن الألفاظ فيها تجانس للمعنى وفيها رقة تسيل على القرطاس وتتفجر عن أنبل عاطفة وإحساس . ثم إن اللفظ على قدر المعنى فلا حشو ولا زيادة مع اقتدار فيه على تأدية المعنى أداء بليغاً مؤثراً .

ولنستمع إلى صاحبه التجانى يوسف بشير يناجى النيل فى وقفة له شاعرية سمت بروحه إلى أعلى عليين حيث فاضت على السامعين من نبعها الصافى هذه الأبيات الخالدات فى قصيدته « فى محراب النيل » . —

أنت يانيل ياسليل الفراديس نبيل موفق فى مسابك
ملء أوفاضك الجلال فرحى بالجلال المفيض من أنسابك
حضنتك الأملاك فى جنة الخلد ورفت على وضىء عبابك
وأمدت عليك أجنحة خضراً وأضفت ثيابها رحابك

إلى أن قال واصفاً مسير المياه .

يتوثبن فى الضفاف خفافاً ثم يركضن فى ممر شعابك
عجب أنت صاعداً عراقيك لممرى أو هابطاً فى انصبابك

اختار الشاعر النابغة أحسن الألفاظ وقعاً فى النفس وإثارة للعواطف ، مما يناسب المعنى الذى تصدى لتوضيحه وبيانه . ألا تسمع إلى هذه الكلمات — نبيل موفق فى مسابك ، ثم الفيض من أنسابك — ثم إلى يتوثبن — ثم إلى كلمتى خفافاً «وبركضن» . إنها ألفاظ تدعو إلى الفكر كل المعانى الجميلة التى تدانيه أو تمت إليه بسبب . فكلمة يتوثبن ترسم للذهن فى أوضح صورة منظر الماء المنساب فوق الضفاف فى سرعة وقوة حيث يغمر سطح الأرض ويفيض على روابيها العالية ، ثم ينحسر عنها جاريا إلى المنخفضات والوديان ، وهذا يتمثل فى عبارة « يركضن فى ممر شعابك » فى قوة ووضوح . وكلمة أجنحة خضراً تدعو إلى ذهن السامع كل المعانى الجميلة التى تلابسها ، فيستعرض الذهن منظر الخضرة اليانعة والظل الوارف ، والطير الصادح ، وكل ما هو جميل مؤثر .

تصوير المرئيات والمناظر الطبيعية :

يقل فى شعر هذين الفلقين وصف المرئيات — أو بعبارة أخرى رسم الصور لما يريان من الأشياء . بينما يزخر شعرهما بنفثات الصدور وخلجات النفوس ، ومظاهر تأثيرهما بالأحداث والنكبات ، واستهجانهما للتقاليد والعادات وتصورهما الحقائق التى امتزج بها الخيال ولونتها العاطفة . ولكل هذه الموضوعات أثر فى نفسيهما الثائرتين ، حيث يشتد الألم البالغ ويطغى الهيجان الفوار ويغلى الدم الحار ، فتنطلق من الشفاه ، همسة محزونة أو صرخة مدوية أو نفثة قوية تذهب فى الناس مثلا سائراً وقولا مأثوراً أبقى على الزمن من الزمن .

افتتن شاعرنا التجانى بمنظر الطبيعة الساحرة لما رأى جزيرة (توتى) تستيقظ فى غلس الليل الدابر وتستقبل الصبح السافر كأنها روضة مفتنة حفها النيل واحتواها البر ففاح شذى زهورها وشدت على الأغصان طيورها، فطرب الشاعر وسكر، وعبر عن هذا الإحساس بلغة خيالها قوى ونغمها شجى، ومعانيها ساحرة.

استمع إليه يقول: —

يادرة حفها النيل واحتواها البر
صحا الدجى وتمشاك فى الأسرة فجر
كم ذا تمازج فن على يديك وسحر
يخور ثور وتثغو شاة وتنهق حمر
والبهم تمرح والزرع مونق مخضر

إلى أن قال: —

وذاب فى الرمل أمواج فى الترائب تجر
هذا شراع مكر، وذا شراع مفر
يطوى وينشر والريح من هناك تسر
وزورق يتهادى وزورق يستحر
يرمى ويقلع والشاطىء هادىء مستقر
ورب قنواء للعصم والأنوق مقر
أوفى على النيل فرعٍ منها وأشرف جزر

أريد بعد هذا البيان بياناً يصور فيه الشاعر العبقرى منظر الطبيعة الساحرة ويعطى صورة كاملة العناصر موصولة الأواصر تنتقل فيها من خاطر إلى خاطر حتى تستوعب كل المعانى التى تكمل بها الصورة للناظر فى أبيات هى السحر الساحر. ولقد أبدع التجانى أيما إبداع فى رسم صورته؛ وفاق فيها المصور الماهر الذى يعمل فى دائرة ضيقة حينما يرسم على لوحته حالة من حالات النفس أو صورة من صور الحس. على حين أن دائرة التجانى أرحب وأوسع، لأنه يستكمل تصوير منظره فى أبيات متعددة إن عجز عن تعبيرها فى بيت أو بيتين.

ولنستمع الآن إلى قصيدة مشابهة من قصائد الشابى التى يصور فيها صورة واضحة لما يحس من أشعة الوجود وألوان الطبيعة وعبر الحياة. يقول مخاطباً الحياة التى يريدها لشعبه فى قصيدته (إرادة الحياة): —

وقال لى الغاب فى رقة محببة مثل خفق الوتر
يجىء الشتاء: شتاء الضباب، شتاء الثلوج، شتاء المطر
فينطفىء السحر: سحر الغصون، وسحر الثمار، وسحر الزهر
وتهوى الغصون وأوراقها وأزهارها عن جمال نضر
وتلهو بها الريح فى كل واد ويدفنها السيل أنى عبر

لقد نقلك الشاعر الساحر إلى جو عبق زاهر فيه تحب الحياة ويحلو المتاع ويطيب النعيم. كيف يكون ذلك وهو يصف ذبولها وتحولها؟ إنه يعطيك صور الحياة المتعة بعرض صورها القاتمة وبضدها تتميز الأشياء. ويصور لك ما يغشاه من ظلام الشتاء، وانطفاء السحر والرواء، حينما تذوى الثمار وتذبل الأزهار، ويغيب النوار، وتسقط أوراق الأشجار التى تلعب بها النكباء فى زمهرير الشتاء، ويدفنها السيل الدافق فى أغوار المهاد والوهاد.

هذه صورة جميلة عبر بها الشاعر عن إحساسات قوية وتأثرات عميقة رسمها باستخدام ألفاظ منتقاة مرتبة فى أعذب ألحان، وأجمل موسيقى، وأقوى أشجان.

(البقية فى العدد القادم) **ابو القاسم محمد بدرى**

مدرس بالمدرسة الثانوية بأم درمان (السودان)

الأدب في سير أعلامه :

ملتن . . .

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال . .]

للأستاذ محمود الخفيف

— ١٧ —

حربه على القساوسة :

اعتزل ملتن الشعر إلى حين لعله ظنه قريباً ، فلم يدر بخلده أن هجران أحب شيء إلى نفسه سوف يمتد عشرين عاماً . والحق أن اعتزال ملتن الشعر والأدب على ما كان من فرط تحمسه له وانكبابه على الأخذ بأسبابه ، أمر يحمل المرء على العجب الشديد بادئ الرأي ، ولكن دواعي العجب لا تلبث أن تزول إذا عدنا إلى خلق ملتن ونزعات وجدانه

خلق ملتن محارباً يحب النضال ويعشق بفطرته الحرية ، فلن يستطيع أن يغمض العين عما يرى من خلل أو فساد ، ولن يستطيع أن يظل جامداً تلقاء ما يراه ظلماً أو استبداداً بالرأي في غير حق ولو كان في ذلك هلاكه ؛ كذلك رأيناه وهو بعد طالب بالجامعة ، وكذلك رأيناه وهو يفصح عن عقيدته الدينية في إيطاليا ، وكذلك نراه اليوم إذ يوقد نار الحرب على القساوسة

وخلق ملتن ديناً تقياً مخلصاً لعقيدته تواقاً إلى الإصلاح ، لذلك ركن إلى البيوريتانز في كثير مما ذهبوا إليه ، وإن خالفهم في إسرافهم في التزمت ومغالاتهم في النفور من الفنون ومن طيبات الحياة

وكانت روح البيوريتانية يومئذ ، أو ما يهجس في نفوس أشياعها من الرغبات هو إصلاح الكنيسة كما أصلحت الكنائس في القارة وتقرير مبدأ الحرية الفكرية والسياسية ، وقد استقرت هذه الرغبة في نفس ملتن وآمن بها إيماناً قوياً

واعتقد ملتن كما اعتقد جمهرة البيوريتانز أن القساوسة في انجلترة بتعصبهم لنظام الكنيسة وبمظاهرتهم الملك في عناده وطغيانه هم العقبة الكؤود في سبيل الإصلاح وفي سبيل الحرية ؛ لذلك أيقن طالبو الإصلاح أن لا أمل لهم في عمل مجد إلا أن يقضوا أولا على الأساقفة وسلطانهم ، ولهذا أقدم ملتن فيمن أقدموا لمحاربة الأسقفية ؛ ولهذا اعتزل الأركاديا أو الفردوس المفقود ، أو سواهما مما كان يملأ خياله من الشعر ، وآثر أن يجيب داعي الله بالدفاع عن دين الله

بيد أنه على الرغم من حماسته إذ يقدم على مناضلة القساوسة كان يحس في أعماق نفسه عظم تضحيته بهجرانه الشعر ، فلقد انقطع له منذ حداثته ، وتوفر على الاستعداد والدرس ، وامتلأت نفسه طموحاً إلى شيء يسلكه في الخالدين ؛ وكان هذا الطموح عزاء قلبه وبهجة نفسه وأنس روحه في عزلته القاسية ، وفي دراسته الطويلة الشاقة !

ولكن لم يك من هذا الهجران بد ، فلم يك يسعه في مثل ذلك الوقت كما قال أن يقف بمعزل « وكنيسة الله تحت أقدام من يهينها من أعدائها » ، ولم يك لينجو من عذاب ضميره لو لم يجعل ما اكتسب من ثقافة ومعرفة وقفاً على الدفاع عنها ، وفي رأيه أنه إذا لزم الصمت ، فإن الله يؤاخذه بصمته ، فلن يغفر الله له أن يقبل الفراغ والقدرة على الدرس ، وقد تهيآ له بعرق قوم آخرين ، ولا ينفقهما إلا في أن يزين بهما موضوعات هي من فخر الحياة وغرورها ، ولكن « إذا كانت قضية الله ، وحقت إجابة داعي الله بنصرة كنيسته ، فإن الله سميع إليك إذ تطلق صوتك ... فإن بقيت أبكم كالدابة ، حق عليك منذ ذلك الوقت ما تصير إليه من إثم بصمتك الذي يشبه صمت البهائم ! »

ولئن كان همه أن يكتب موضوعاً يكسب به الفخر ، فليس هذا وقته والجيل كله يشترك في صراع من أجل الحرية تتلظى ناره ، أو يشهد على الأقل ذلك الصراع ، وينتظر الناس وأنفاسهم عالقة ما ذا يكون من أمر هذه المعركة ، أو كما قال ملتن : « إنه لمن الحق أن تلقى بشيء كتبته جاهداً في نسق عال إلى قوم هم عنه ساهون ، إذ يقطع إصغاءهم إليه ما يزخر به عصرهم من ضجيج وصخب » . أضف إلى ذلك أنه لم يكن يعتقد أنه أخذ أهبته لذلك الشيء بعد ، فإنه يشير إلى ذلك حتى بعد بدء الحرب على القساوسة بنحو عام قائلا : « إني لم أستكمل بعد في عقلي دائرة دراساتي الشخصية » !

لذلك يدع قيثارته إلى أجل لعله يكون قريباً يوم يرى وطنه على حد تعبيره : « وقد خلص نفسه من ذلك الطغيان الذى لم يكن مثل هـذا الزمن أوانه ، ذلك الطغيان المستند إلى مقام كبار القساوسة ، والذى لا يرجى لأى فكر حر أو ذكاء ألمى أن ينمو ما دام له تجسسه واستبداده »

وثمت دافع آخر لا يقل خطراً عن هاتيك الدوافع يسوق ملتن إلى تلك الحرب ، وذلك هو عظم ثقته فى نفسه وفى الشعب الإنجليزى ، فهو منذ صغره — كما رأينا — يعتقد أنه كفؤ لعظائم الأمور ، فما نهض لأمر — مهما كان خطره — إلا بلغ منه ما يريد ؛ واليوم يخالجه شعور أن نفسه تنطوى على قوة كامنة فيها إن هى أثيرت كانت ذات أثر عظيم فى مستقبل الكنيسة وفى مستقبل وطنه . والحق أن وراء طموح ملتن نحو العظمة الأدبية طموحاً آخر نحو العظمة فى ذاتها فى أية صورة من صورها ، فلا ضير أن تواتيه فى صورة الدفاع عن الحرية أو عن الكنيسة ، أما ثقته فى الشعب الإنجليزى فكان مردها إلى أنه يرى بنى قومه الشعب الذى اصطفاه الله على العالمين ، وأنه تجلى لخلقه من الإنجليز أول ما تجلى ، وأنهم سوف يقيمون على هذه الأرض مملكة الله التى ترى رأى العين

ومع شدة حماسته لما هو مقبل عليه نراه ينطق قبيل دخوله المعركة بما يشعرنا بتردده وإشفاقه ، نجد شاهداً على ذلك فى قوله بعد أن أشار إلى ما كان فيه من استغراق فى الأدب والشعر : « ما أقل ما يحفزنى من ميل إلى أن أقطع ما أنا بسبيله من مثل هاتيك الآمال ، وأن أترك عزلة هادئة ممتعة تكتنفها تأملات سارة وثيقة لأقلع بسفينتى فى بحر مضطرب تملأه الضوضاء والجدل الصاخب » . وهو فضلا عن ذلك يحس أنه ترك ما يحسن إلى ما لا يحسن مما يزيده شعوراً بتضحيته ، وأنه نسى نفسه وما كان يتحرق إليه من مجد أدبى ليجيب داعى الله ، نجد ذلك فى قوله: «ما كنت لأختار لنفسى أن أنهج هذا النهج من الكتابة ، وأنا على علم بأنى هنا دون حقيقتى ، فقد أعدتنى قوة طبيعية صادقة لعمل آخر ؛ ولذلك فإنى فى هذا المتجه الجديد أحس كأنما أستعمل يدى اليسرى »

ولكنه يسلم إلى الله أمره ، فإن الهدى هدى الله ، انظر إلى قوله : « إذا جاء أمر الله بأن نشرع البوق وأن ننفخ فيه نفخة شاكية صاخبة ، فلن يدخل فى إرادة الإنسان بعد ذلك ما ذا يقول ولا ماذا يخفى فى نفسه » . وكلن يؤمن ملتن بأن الله سيثيبه على فعله وسيهبه القوة والإقدام ، وعد له فى حياته ليكون بوق النصر كما كان بوق المعركة ، ولقد ظل أثناء المعركة يفكر فيما هو عائد إليه بعد أن تنتهى الحرب .

والحق أن ملتن قد أفاد من المعركة ما لم يخطر بباله عند دخولها ، فى أثناء تلك المعركة الطويلة تكونت فى نفسه ملحمته الكبرى الفردوس المفقود ، فكانت كلحمة دانتى عملا ليس قوامه الفصاحة والخيال والقدرة الفنية فحسب ، بل أضيف إلى ذلك تجربة الحياة ومعاناة خصوماتها والوقوف من كثب على عوامل الشر والخير فى النفس البشرية وفى المجتمع ، وتذوق طعم الأمل مرة والخيبة مرة ، والنفاذ إلى أعماق العواطف والانفعالات ثم معرفة كيف يكون اليأس القاتم بعد الأمل الباسم ، فلا عجب أن يتغنى الشاعر بعد ذلك بالفردوس المفقود ، وقد شهد فقدان بنى وطنه ما كان يرجوه لهم ويرجو معه المصلحون من حياة فى الدين والسياسة على هذه الأرض كحياة الفردوس .

وفى هذه المعركة تهيأت فى نفسه الملحمة فلم يبق إلا أن يغنيها وأن يلبسها لباس الشعر ؛ والحق أن المعركة أجدت عليه أكثر مما أجدت قراءاته ودراساته ، إذ استطاع أن يضيف خبرة الحياة إلى هبة الفن وأن يترك لهذه الدنيا أثراً فذاً من هاتيك الآثار الخوالد التى يغنيها كل عصر وتأنس إليها كل بيئة .

ومن الخطأ أن نعد دخول ملتن تلك المعركة انتصاراً منه لأصدقائه البيوريتانز فحسب فان حبه الحرية وميله إلى نصرتها أبداً هو الشعور الحقيقى الذى دفع به إلى الحرب ، وكانت غايته التى يصبو إليها أن يعيش الناس طلقاء فى أفكارهم وأعمالهم بعد أن يذهب سلطان القساوسة القائم على التعصب والاستبداد بالرأى والاضطهاد ، وكان ملتن بحميته وثورة نفسه يمثل فى الواقع روح العصر ، ففى العصر كله ثورة على الطغيان فى أى صورة من صوره وما كانت البيوريتانية ومنذ فلسفة دينية فحسب ، وإنما كانت فلسفة دينية وثوبة سياسية معاً .

ومهما يكن ماصدر عنه من عبارات تشعرنا بتردده وإشفاقه فانه أقبل فى حماسة عظيمة وشجاعة فذة بعد أن ابتدأ النضال ورأى نفسه فى غمار المعركة ، وإنما كان ما خيل إليه أنه تردد

أسفاً منه على هجرانه الشعر والتهيؤ له ...

وكيف بدأت المعركة؟ لم يكن ملتن البادئ بها وإنما بدأت في البرلمان الطويل سنة ١٦٤٠ إذ تقدم البيوريتانز من النواب بمقترح الأصل والفرع فمنذئذ نشر أحد القساوسة وكان يدعى هول كتيباً سماه « الاعلان المتواضع » ورد فيه على ما سماه هو وزملاؤه الاعلان الأعظم كما رد على مقترح الأصل والفرع ؛ وأجاب خمسة من البيوريتانز سموا أنفسهم سمكتمنس يدحضون فيه ماذهب إليه هول ؛ وكان توماس ينج أستاذ ملتن القديم أحد أفراد هذه الجماعة ، ولذلك ظن أن ملتن اشترك في وضع هذا الكتيب ؛ ثم توالت الكتيبات كالسهام من جانب البيوريتانز ومن جانب خصومهم . وشد ملتن قوسه فيمن شد وأطلق أول سهم من سهامه سنة ١٦٤١ في صورة كتيب له هو أول كتيباته جعل له عنوانا طويلا هو « حول الاصلاح الديني فيما يتصل بنظام الكنيسة في انجلترة والأسباب التي عاقته حتى اليوم » .

كان هذا الكتيب الأول أقل كتيبات ملتن صرامة في القول وعرامة في الخصومة ، وإن كان ليبعد كل البعد عن أن يوصف بالهدوء إلا أن يقاس إلى ماسيأتي بعده ، وحسب القارئ أن يقع على خاتمته التي يدعو الله فيها أن يجعل البار خاتمة حياة القسيسين على هذه الأرض ، وأن يلقى بهم في الدرك الأسفل من النار ليخلدوا فيها وليكونوا في مواطئ غيرهم من أصحاب الجحيم ، وفي صفحات الكتيب غير هذا من صارم القول وقاذع الوصف ما يدل على غل الخصومة واحتدام السخيمة .

أتى ملتن في كتيبه هذا بموجز لتاريخ الكنيسة منذ القدم فلم تعجبه في قديمها ولا في حديثها ، وما قساوستها الحديثون إلا مقلدون يسيرون على نهج أسلافهم في مظاهر الصوم والصلاة والتظاهر بالزهد ، وما كان أسلافهم إلا ضالين غاوين ، فالقسيسون أنفسهم خطأ في ذاتهم ؛ وهؤلاء الحديثون منهم ليسوا قسيسين في شيء ، ثم يشير إلى النهضة الاصلاحية في انجلترة ويذكر كيف تعثرت ووقفت بسبب تعصب القساوسة والملوك واستبدادهم بآرائهم ، ويذكر الناس بهؤلاء الأحرار الذين هاجروا بعقيدتهم عن أوطانهم الحبيبة والذين « لم يكن لهم عاصم من غضب القساوسة إلا المحيط الفسيح وصحارى أمريكا الوحشية » ، والرأي عنده أن يقضى على الأسقفية فتذهب إلى غير عودة وتحل البرسبيترية محلها ؛ ولئن تم ذلك أصبحت انجلترة « مدينة الله » . وانتشرت الحياة الطيبة في أنحائها طولا وعرضاً ، فإن هؤلاء القساوسة منذ حلوا بكنتربرى قبل اليوم بنحو اثنى عشر قرناً وهم في جملتهم لم يكونوا في انجلترة لأرواحنا واأسفاه إلا سلسلة من أئمة الهداية العميان الجهلاء ، ولأموالنا وتجارتنا إلا عصبة متلفة من اللصوص ولدولتنا وحكومتنا إلا هيدرا(١) الأساءة والعدوان » .

ويتضمن هذا الكتيب ناحية من نواحي ملتن الدينية وهي ما تصوره عن ذات الله سبحانه ، فعنده أن الله لايحد ولايوصف بصورة معينة ولاتدركه الأبصار ، ولايفوته هنا أن يتهم الكنيسة بأنها تحاول تحديد ذات الله وتصويره وذلك في رأيه أصل الخرافات جميعاً ، يقول عن رجال الكنيسة « كما لو استطاعوا أن يجعلوا الله ينتمي إلى الأرض وأن يكون له مثل جسدنا ، وذلك لأنهم لم يستطيعوا أن ينتموا إلى السماء ولا إلى عالم الروح » .

وجاء في هذا الكتيب رأيه لأول مرة عن الشعب الانجليزي ، فهو الشعب الذي اصطفاه الله على العالمين ، وخليق بهذا الشعب أن يبرهن على أنه جدير بهذا الاصطفاء ، ويعلن ملتن رضاءه عن النظام الدستوري الانجليزي في ذاته بل إنه ليغلو في امتداحه كل الغلو فيقول : « ليس فيما سلف من الحكومات المدنية نظام كنظام حكومتنا الانجليزية ، لا عند الاسبرطيين ولا عند أهل روما .... حيث تجد أعظم الناس نبلا وأكثرهم جداً وأبعدهم نظراً ولهم بمحض إرادة الناس واختيارهم تحت سيادة ملك حر لا قيم عليه الكلمة العليا والرأي الفاصل في أعظم المسائل » .

وينتهي الكتيب بابتهال إلى الله طويل حار ملؤه العاطفة الصادقة أن يخلص كنيسته من هؤلاء القسيسين وأن ينزل عليهم لعناته ، ثم يتنبأ بنبوءة فحواها أن فجراً بهيجاً يوشك أن يهل نوره على انجلترة ، ولن يعدم ذلك الفجر طائره الصداح ، فلسوف ينبغ من بين هؤلاء القديسين الذين ينافحون عن دين الله شاعر يأتي بلحن علوي جديد يشكر به أنعم الله ويسجل نصر الله في مملكة تنعم بنعمة الحرية وقد تخلصت من القساوسة وجدت شاعرها المختار ...

(يتبع) **الخفيف**

(١) التنين الخرافي ذو الرؤوس المتعددة كلما قطعت رؤوسه نبتت ثانية .

رباعيـــات عثمان

للاستاذ عثمان حلمى

هكذا كانت الحيـاةُ فزنها   كيف كانت وخذ نصيبك منها
لا تزنها إلا بعقلك إن شئـ   ـتَ خلاصاً من بطشها لا تزنها
إن ميزانها .بمقياس إحسا   سك أدعى لأن يصدَّكَ عنها
وحرامٌ عليك إن شئتَ ما فيـ   ـها فإن الذكىَّ من لم يشنها

* * *

إن فيها لمن أراد خبالا   وجمالاً لمن أراد جمالا
لونُها لونُ ما بنفسكَ من حا   لٍ إذا حُلت ما بعينك حالا
وكذا تسمعُ النفوسُ صداها   فترى الحق فى الحياة ضلالا
إنما العقلُ للبصيرِ هو المر   جعُ والمستبدُّ من يتغالى

* * *

طالما جئتَ رغم أنفك فيها   يا ابنها كنْ كواحدٍ من بنيها
كن حكيما وخذ نصيبك منها   حسناً ما أصبته أو كريها
لا تكن جامداً إذا شئتَ أن تحـ   ـيا ولا مسرفا بها أو سفيها
وإذا لم تشأ فدونك نفسٌ   ما عزيزٌ عليكَ ما يُرديها

* * *

علِّم النفس أن يكون رضاها   بالذى كان واقتصد فى مناها
وقليلٌ من التجاهل والصبـ   ـر أمانٌ من بطشها وأذاها
أنت ما جئت فى حياتك كى تصـ   ـلح ما فى الحياة من أخطاها
لا ولا جئت كى تضيع من العمـ   ـر كثيراً فى همها وشقاها

* * *

إن يوماً مضى بغير سرورٍ   ليس من عمرك السريع القصيرِ
وقليلٌ من التجهّم والحز   ن كثيرٍ فما ترى فى الكثير
ومن الحمق والجهالة بالخلـ   ـق إذا عشتَ عيشةَ المصدور
فاتخذ من جوانب الجدّ للهز   ل مجالاً يحدّ جدّ الأمورِ

* * *

لك عمرٌ مهما بلغتَ قصير   طالَ فيه الأسى وقلَّ السرورُ
فتعلم كيف انتها بك للعمـ   ـر فإنّ الذى مضى لا يحورُ
والليالى لهـا جناحان بالأعمـ   ـار فى غفلةِ النفوسِ تطيرُ
يرجع الليلُ والنهارُ وما يَر   جعُ يوماً ما غيبته القبورُ

* * *

واتخذ من تجارب الغابرينا   لك عوناً حتى تذوق اليقينا
وأضف علمَ من مضوا لتجاربـ   ـك واحذر من أن تموت حزينا
والذى مرّ فى حياتك لا تأ   سف عليه أو ما عسى أن يكونا
خلّ دنياك كيف شاءت وصلها   ماجناً إن أوسعتك مجونا

* * *

وتبسّمْ للسعدِ والاقبالِ   وتبسم فى خيبة الآمالِ
وتنقلْ كما تشاء الليالى   غير آس من أىّ حالٍ لحالٍ
إن عمراً ختامه الموت جهلٌ   إن تقضّى فى الهمّ والبلبال
وعزيزٌ علىَّ أن تَردَ المو   ت حزيناً فى زمرة الجهّال

* * *

ما ارتوت بالبكاء مهجةُ باكٍ   لا ولا أثمرت شكايةُ شاكِ
إن موج الحياة يحمل فى مدِّ   ه وفى جزره صنوفَ الهلاكِ
وتمر الأجيالُ والناسُ صرعى   رممٌ وسدتْ بغير حراكِ
سخر الدهر بالجميع وساوى   بين رم الفجار والنساكِ

* * *

فى اكتمال الشباب نقص المشيب   وانتهاء الشروق بدء الغروبِ
ومصير المشيب ألعن ما فيـ   ـه خمودُ القوى وموت القلوب
ضجعة الموت لا تنغّصُ بالذعـ   ـر ولا بالجوى ولا بالنحيب
فتأمل فليس فى الأرض أو فى الـ   ـخلق ما يستحق شقّ الجيوب

* * *

لم أجد فيما مضى من حياتى   لى عذراً فى الهمّ أو فى الشكاة
ولقد عشت ما ندمت على ما   فاتنى أو جزعتُ من أى آت
طىُّ قلبى ابتسامة ما توارتْ   عن فمى للصحاب أو للعداة
وكلامى فى كل لفظ لمن يفـ   ـطن ماضٍ من الصوارم عاتِ

* * *

عادلٌ من يصرف الأياما ... وغبيٌّ من اشتكى أو لاما
وصميمُ الحياةِ لهو ولغو ... فمن العدل أن نمرَّ كِراما
ما الذي نرتجيه في أمرنا الوا ... قع إن كان في القضاء لزاما
لا يذم الزمان والناس إلا ... من تغابى عن فهمهم أو تعامى

* * *

لا تلم مسرفاً على الإسراف ... لا أرى لومه من الإنصاف
لا تلمه وإن تمادى ومهما ... بلغت نفسه من الاتلاف
بيد الدهر للخليفة ميزا ... ن دقيقٌ وعدله غير خاف
إن هوت بكفة فمناه شالت ... بكفةٌ دون أيما إجحاف

* * *

لا تلمني إذن فلستُ أبالي ... رغم ضعفي ورغم طول اعتلالي
إن جسمي الذي تضعضع وانه ... ار جديرٌ بسوء هذا المآل
قد تقاضى الزمان مني أثمـ ... ـان ضلالي على مرور الليالي
ومن العدل أن أرى العدل فيما ... نال مني جزاء هذا الضلال

* * *

قد نهبتُ الشباب في العمر نهبا ... ورأيتُ الإسراف في اللهو كسبا
وجرى بي الهوى فما بتُّ إلاَّ ... بفؤادٍ دوّى هياماً وحبّا
ورأيتُ الأيام تجرين خبّا ... فجرت بي من خلفها النفس خبّا
ولو اسطاع فوق ذلك جسمي ... أو فؤادي زيادة ما تأبى

* * *

هذه سنتي وحسبك نصحي ... فأرحني من كل ذمٍ ومدح
ليس بالذم إن ذممتَ أو المد ... ح إذا ما مدحت خسري وربحي
إنما شئتُ أن أمور ما أحـ ... ـسست بالنفس من شعورٍ ملحّ
في حياة أمضيتها وكفاني ... وكفاها إثباتُ جدّي ومزحي

* * *

وقصارى رأيي وغاية قصدي ... وانتهائي من بعد أخذٍ ورد
أن تمر الأيام باليسر لا با ... لعسر حتى بلوغ يوم التردّي
لا نحيبٌ ولا تحدٍ ولا لو ... مٌ لفردٍ ولا عتابٌ لفرد
طالما اسطعت بابتسامة سخر ... أن تحدّ الأمورَ في خير حدٍّ

* * *

لا أذم الحياة بعد المشيبِ ... طالما جزتها بقلب طروبِ
إنّ للشمسِ في الضحى من جلال ال
حسن في العين ما لها في الغروب
ونصيب الشباب في العيش لا يف ... ضل في حسنه نصيب الشيب
كل يوم له مذاقٌ ولونٌ ... ماله في صفاته من ضريب

* * *

لا تلمني وانظر إلى تكويني ... فظنوني من كنهه ويقيني
والتمس يا أخي لي العذر في رأ ... يي وفي كل شارد من ظنوني
عن شمالي هادٍ وعنها مُضلٌ ... ولنفسي سواهما عن يميني
نخفي يضـلني وخفيٌّ ... لست أدري مراده يهديني

* * *

ومحيط الإنسان أكبر جان ... هو أو رحمة على الإنسان
ومن الجو والوراثة والأصـ ... ـحاب جان ومن صروف الزمان
ومن العلم والجهالة والأهـ ... ـل ومن كل ما ترى العينان
ليس للمرء من يد في هدى النفـ ... ـس ولا في الضلال والخسران

عثمان حلمي

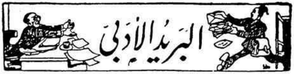
إلى أدباء البلاد العربية

. . . لم تبق إلا هذه الوسيلة!

إن لديَّ بحثين معطلين عن « شعراء الشباب » وعن « القصة الحديثة » لأنني لا أستطيع الحصول على أعمال المعاصرين من الشعراء والقصاص في البلاد العربية. ولا أحب أن أقصر بحثي على أعمال الأدباء المصريين.

فرجائي إلى كل شاعر وكل قصاص في البلاد العربية، أن يتفضل فيرسل إليّ بأعماله في هذين البابين عوَّلا بثمنها على البريد.

(حلوان) **سيد قطب**



إلى أدباء العراق :

حمل البريد إلى « الرسالة » وإليّ عدداً من الرسائل الواردة من العراق ، تتراوح لهجاتها بين الحملة العنيفة ، والعتاب الرقيق على ما فهم الإخوان هناك من اتهامي لهم بأنهم من قراء الدكتور عبد الرحمن بدوي !

فمن أمثلة الحملات العنيفة رسالة من الأديب « صلاح الدين بيات — كلية الحقوق ببغداد » يقول فيها :

« ... قرأت في العدد ٦٧٤ من مجلتكم ما أدهشني بل وأغضبني حقاً . حتى كدت من فرط غضبي وحنقي أن أمزق المجلة وألعن كاتب السطور ...

« فقد كتب (سيد قطب) أن « كتب الدكتور بدوي تقرأ في العراق ! » وقد زعم بأن سائلا قد سأل « من الذي يقرأ كتب الدكتور بدوي ؟ ... » فكان الجواب ما أوردت »

ثم يقول في نفس الرسالة :

« معذرة ياسيدي . لايذهبن بك الظن إلى هذا الحد — وإن بعض الظن إثم — فالعراق ليس بمثل هذه الدرجة من البلادة والغباوة بحيث يقرأون عبث صبيانكم وسفاسفهم » .

إلى أن يقول :

« وثق أيها الأستاذ أن كثيراً من كتبكم التي تقرأ تنقد . بل أحيانا — أقول لك بصراحة — إنها تستسخف ، ويوصم بعض كتابكم بالمتاجرين في الأدب !

« أكتب هنا وأنا منفعل أشد الانفعال من كلمتكم الجارحة إذ لا يفتأ بعض كتاب مصر العزيزة من جرح شعور العراقيين في كل فرصة سانحة ، ولا أدري سبب ذلك ... » .

ومن أمثلة العتاب الناضب ما جاء في رسالة للأديب « عبد الله نيازي » :

« مما حزّ في قلبي أني قرأت في عدد « الرسالة » ٦٧٤ للأستاذ سيد قطب رأيا في العراق والعراقيين يخالف الواقع حيث أن حضرته ألصق بالعراقيين تهمة قلة الذوق الأدبي ، وعدم التفهم لما يقرأونه ، بتصريحه أن كتب عبد الرحمن بدوي لا تقرأ إلا في العراق . مع أني أؤكد بأن بدوي المشار إليه ليس إلا نكرة في العراق .

« وحسبي أن أقول للأستاذ سيد قطب ما يلي :

« هل زرت العراق أيها الأستاذ وشاهدت بنفسك جمهور العراقيين يتهافتون على شراء كتب عبد الرحمن بدوي ، أم إن القضية لا تعدو السماع ؟ ... فإذا كانت الأخيرة ، فليس من اللياقة والكياسة أن تتهم شعباً ناضجاً بتهمة هو بريء منها » .

ومن أمثلة العتاب الرقيق ما جاء في رسالة «قارئ» حيث يقول:

« — لولا أنني أعرفك من كتاباتك . ومن بعض إخواني العراقيين الذين زاروا مصر وتحدثوا إليك ، وعرفوا روحك بإزاء أدب الشقيقات العربية وأدبائها ... لولا هذا لاتهمتك بالتعصب الشديد ضد العراق . ولولا ذلك لما اتهمته في ذوقه مثل هذا الاتهام الجارح ... فمن قال لك ياسيدي إن كتب دكتوركم عبد الرحمن بدوي تجد قراء كثيرين عندنا . وهل خفت أن نتهمكم أنتم — المصريين — في ذوقكم بمناسبة هذا الديوان ، فرأيت أن تلقى التهمة على العراقيين ... ؟ !

« ... على كل حال . هذه مغفورة لك . لما أعلمه ويعلمه الكثيرون عنكم هنا من عدم التعصب ، وعنايتكم بآثار أدباء العربية في جميع البلدان الشقيقة ... والسلام » .

وأكتفي بهذه الأمثلة الثلاثة للدلالة على تلك الحساسية الشديدة في نفوس إخواننا العراقيين . ولكنني في الحقيقة أميل إلى أن ألتمس لهم العذر في أعنف حملاتهم عليّ وعلى « الرسالة » . إن التهمة ثقيلة ، وجارحة . ومن حقهم أن يتبرأوا منها ! ! !

ولكن أسلوبي كان واضحاً مفهوماً ، في أنني لست صاحبها . وقد جاء في كلمتي بالحرف الواحد :

« ومعذرة لإخواننا العراقيين . فناقل الكفر ليس بكافر . وفي وسعهم أن يدافعوا عن أنفسهم ضد هذا الاتهام » .

فكيف جاز لأحد منهم أن يفهم أنني أنا الذي ألقي عليهم هذه التهمة لولا أن سورة غضب جامحة ، وحساسية كذلك شديدة لم تدع لهم أن يتبينوا مرامي قولي ، وأن يدركوا كذلك وجه النكتة ، وأسلوب التهكم المقصود ؟ !

أغلب الظن أن جماعة صغيرة من متحمسي الشباب هناك هم الذين ألهبهم الغضب، فأساءهم النظر في مدلول ما كتبت. وأن الآخرين – وهم الكثرة – من القراء والأدباء في العراق، فهموا وجه القول، فلم يجدوا فيه طعناً للذوق العراقي، ولا منقصة ولا اتهاماً!

ولقد لمحت في بعض الرسائل الثائرة روحاً من التعصب المحلي الضيق، لم أرد أن أقتطف هنا مايدل عليها، فلعلها سورة غضب وقتي، ثم يعودون فيرون أن مصر والصحافة المصرية حفية بكل أدب عربي. وأنني أنا بالذات نوهت بمعظم ما وقع لي من هذا الأدب كالأدب المصري سواء. أما «الرسالة» بخاصة فلا يمكن أن تتهم بإغفال أدباء البلاد العربية وعلى صفحاتها تجرى أقلامهم، وقد تكون هي أول من يعرّفهم حتى إلى مواطنيهم. على أن هناك ماينفي التعصب جملة: أليس الكتاب الذي يلقى هذا النقد كتاب شاب مصري؟!

ولقد شكوت مرة من صعوبة حصولنا على مطبوعاتهم. وعندي بحث عن شعراء الشباب وبحث عن القصة الحديثة. أؤجلهما فترة بعد فترة لأنني لم أستطع إلى اليوم الحصول على إنتاج البلاد العربية فيهما، ولم أرد الاكتفاء بالأدب المصري. فهل بعد هذا نتهم مصر بالتعصب؟

سيد قطب

كفل به وكفله أيضاً:

سعادة الأستاذ الكبير السيد أحمد حسن الزيات – أطال الله بقاءه –

قرأت – سيدي – كلمة طيبة في الرسالة[1] لعالم فاضل من بني سهم، تتبع فيها ما كنت نشرته في مجلة المجمع العلمي العربي من وجوب أن يقال «كفل به» إذا أريد «تحمل به» لا كفله، واستشهد على صحة «كفله» بما ورد في لسان العرب خاصا بذلك وهو «كفل المال وبالمال ضمنه» وذكر أموراً أخرى تدل على نفس عطر في العربية ونفس كريمة، وأود أن أذكر لحضرته أني اطلعت على ما في اللسان وعلى ما في غيره فقد جاء في المصباح المنير «وحكى ابن القطاع كفلته وكفلت به وعنه إذا تحملت به» وقد توفي ابن القطاع سنة «٥١٥ هـ» فهو من المتأخرين؛ وإني

(١) الجزء ٦٧٤ ص ٦٢٢

لم أنقل قول الزمخشري – وهو معاصر لابن القطاع – لكون أساسه مستوعباً لكل لفظة وتركيب – كما ظن العالم الفاضل حفظه الله – بل كان ذلك من قبيل التمهيد لدعواى.

فأنا أقول محتجاً لدعواى تلك: إن العرب ميزت بين «كفله وكفل به» فلكل منهما معنى والمساواة بينهما تورث اللبس، وإن أخوف ما خافته العرب على لغتها هو الالتباس، فلذلك استعانوا بحروف الجر كل الاستعانة – كما هو بيّن للعالم الفاضل الناقد – ولو كان أمر «كفله وكفل به» من باب الحذف والايصال الذي هو من خصائص هذه اللغة الكريمة لكان تنبيهي تشديداً وتحجراً تأباهما طبيعتها السهلة السمحة، وإنما هو أمر ذو بال، وإدخال الباء على المكفول به لازم، وكذلك الحال فيما أشبهه، فقد قالت العرب «تحمله» فلما أرادوا به «كفل به» قالوا «تحمل به» وقالوا «قبله» فلما أرادوا به ذلك المعنى قالوا «قبل به» وقالوا «زعمه» ثم قالوا «زعم به» أي كفل به.

ولم يبق بيني وبين من أجاز «كفله» إلا كلام العرب وهو الحكم الفيصل، فقد جاء في كتاب نهج البلاغة في أثناء وصف الحيوان «فهذا غراب وهذا عقاب وهذا حمام وهذا نعام، دعا كل طائر باسمه وكفل برزقه» وجاء في وصف النملة منه «تجمع في حرها لبردها وفي وردها لصدرها، مكفول برزقها مرزوقة بوفقها» وورد في كلام الأخطل للشعبي في حضرة عبد الملك ابن مروان «من يكفل بك؟ قلت أمير المؤمنين» وفي الأغاني «من يتكفل بك؟[1]» فالباء لازمة في كليهما.

وقال المبرد في أخبار الخوارج «وطالب الكفلاء بمن كفلوا به فكل من جاء بصاحبه أطلقه وقتل الخارجي ومن لم يأت بمن كفل به منهم قتله» وقال الطبري «فلم يزل يحيى ابن عمر محبوساً إلى أن كفل به فأطلق»

وقد تعقبت هذا اللفظ وحرف جره خمس عشرة سنة فلم أجد من خالف فيه وجهه الصحيح إلا ابن الساعاتي الشاعر المتوفى سنة ٦٠٤ هـ بقوله:

(١) شرح نهج البلاغة، مج ١ ص ٤٥٤ ومج ٣ ص ١٩٩ ومج ٤ ص ٥٠١ والكامل ج ٣ ص ١٥٤ من طبعة الأزهري وتاريخ الطبري سنة ٢٥٠ ص ٨٧ من طبعة مصر والأغاني ج ١١ ص ٢٥ من طبعة دار الكتب وديوان ابن الساعاتي ج ١ ص ٧٤

كفل الدمع رى سفحيك والدمـ ـع ملىء بعد النوى بالكفالة

وهو شاعر متأخر مضطر كسائر الشعراء. فمن يأتنى بعبارة لعربى فصيح استعمل فيها « كفله » بمعنى « كفل به » فقد عارض الحجة بالحجة وحقق صحة ما ورد فى اللسان وفى غيره وألزمنى الرجوع عن قولى.

هذا وإنى شاكر للعالم الجليل الفاضل ما أصحر به من كمال الأدب والغيرة على لغة العرب، أيده الله تعالى.

(بغداد) **الدكتور مصطفى جواد**

حول ترجمة « المقامر » لدستويفسكي

قرأت فى عدد مايو من مجلة المقتطف نقداً لقصة « المقامر » التى نقلتُها إلى العربية ونشرتها دار الكاتب المصرى. ولقد كان أسلوب الكاتب فى نقده جديراً بأن يصرفنى عن الرد عليه، لولا أن هناك أموراً أريد أن أقررها لمن يعنون بالأدب الروسى من قراء العربية.

لقد تناول الناقد ترجمة كونستانس جارنت الانجليزية، وترجمة ألمانية لم يذكر اسم صاحبها، وظل يداول بينهما أشهراً حتى حصل على اختلاف يسير بينهما وبين ترجمتى، فصاغه فى أسلوب القدح والنبز، وظن أنه قد هدم القصة والمترجم. والحق أنه كان (هجاء) بارعاً، فمادى بين المترجم والناشر، وكاد يوقع بينهما المؤلف.

هل يعنى الأستاذ الناقد أن ترجمة المقامر ليست ترجمة مطابقة، وإنما هى ترجمة مقاربة؟ ومن ذا الذى يدعى أن ترجمة كتاب روسى عن الفرنسية أو الانجليزية ترجمة مطابقة؟ إننى يا سيدى الناقد لا أقدس الأوربيين كما تقدسهم؛ فقد نقلت عن ترجمتين، كما راجعت أنت ترجمتين: أما أولاهما فترجمة هوجارث الانجليزية، وأما الثانية فترجمة البرين كامنسكى الفرنسية. وقد لقيت من الجهد فى التقريب بين الترجمتين ما يعرفه الناقد إن عنى نفسه بمثل هذا العمل. لن تكون تراجمنا عن الأدباء الروس تراجم مطابقة حتى ننقل عن الروسية، وهذا عمل لن نعتمد فيه على جيل قادم بل سوف ننهض نحن به. فكثير أن ندعى لأنفسنا العلم بالأدب الروسى ونحن نقلب بين أيدينا تراجم إنجليزية وفرنسية وألمانية.

وبعد ... فقد شاء الأستاذ الناقد أن يرمينى بركاكة الأسلوب، واستشهد بسبع عبارات عدها أخطاء لغوية، ويكفينى أن أمثل لهذه « الأخطاء اللغوية » التى عثر عليها الأستاذ بعبارتين اثنتين.

فقد كتبت « نظر إلى باستعلاء » فعدها الأستاذ خطأ، ونص على أن صوابها « متعالياً، أو فى عنجهية »، وكتبت « تسمع احتجاجى » فعدها الأستاذ خطأ أيضاً، ونص على أن صوابها « تأذن إلى استنكارى » ... أما « الأخطاء » الباقية فقد نتجادل فى صحتها إلى آخر الدهر، لأن مرجعها رغبتى فى التوسع، معتمداً على التضمين أو حذف الخافض أو غيرهما من قواعد اللغة، حتى يسهل الأسلوب ويلين، ويطوع لأكثر ما فى الأصل من معانٍ، ومن ظلال معان. أما الأستاذ الناقد فيؤثر التنوق والإغراب، ويتفاصح بتخطئة الصحيح المقبول، ويعد من لا يتنوق ولا يتفاصح مثله ركيك الأسلوب.

على أن مثار دهشتى أن الأستاذ وهو المتشدد فى اللغة، قد أرداه تنوقه فاستعمل كلمتين لا وجه لهما، ولا فائدة فى الدلالة على معنى خاص، فقال فى أول مقاله « أبهظته خيانة الزوجة » وليس فى العربية إلا « بهظَهُ » وليس فى أبهظ معنى زائد. وقال فى آخره « عدا العرب على عبارات المؤلف بالمسخ والتشويه والتقطيع » والتقطيع — ياسيدى — كأخيه الإبهاظ، لم تذكره كتب اللغة.

هذا ما بدا لى فى مقال الأستاذ، كتبته لأبين منهجى فى ترجمة هذا الأدب. وأعرض عن لغو كثير.

شكرى محمد عياد

إلى الأستاذ على الطنطاوى:

قلت فى كلمتك من مزايا « الرسالة » المنشورة فى بريد العدد ٦٧٥ « ولكن السهمى لم يصحح تفسير الأستاذ الكبير العقاد لكلمة المحدَّث فقد ذكر أن (المحدَّث الذى يسمع كلام الله) مع أن الذى قالوه فى المحدث أنه الملهم ».

ولو أعاد الأستاذ الطنطاوى قراءة ما كتبه الأستاذ السهمى لوجده قد صحح الكلمة وتفسيرها بما نقله عن كتاب النهاية لابن الأثير.

(منصف)

تصويب:

فى مقال « دفاع عن البلاغة » فى العدد الماضى وقعت أغلاط منها غلطتان لا بد من تصويبهما فى هاتين الفقرتين:

١ — العمل الفنى فى الأدب لا يوصف بالجودة إلا أن يتهيأ للفكرة الجيدة ... أسلوب جيد » وقد كتبت (أسلوبا جيداً)!

٢ — « لأنه بلغ من سر الصناعة غاية تظلع دونها أكثر الأقلام » وقد كتبت (تطلع)!